لمحات من تاريخ مصر والعرب

إعداد

أسامة عبد الرحمن

مؤسسة دار الفرسان

للنشر والتوزيع

٥١ ش إبراهيم خليل – المطرية

ت : ٢٢٥١١١١٠ -٠١٢٩٨٧١٢٣٧

اسم الكتاب :لمحات من تاريخ
مصر والعرب
المؤلـــف : أسامة عبد الرحمن
الناشـــر : مؤسسة دار الفرسان
تصميم الغلاف: فرى برنت- ٠١٠٤٤٧٠٦٤٥
رقم الإيداع : ١٠٣٥٥
طبعة أولى : ٢٠١٧

فهرسة أثناء النشر

عبد الرحمن ، أسامة
لمحات من تاريخ مصر والعرب / أسامة عبد الرحمن – القاهرة.- ط١
مؤسسة دار الفرسان للنشر والتوزيع
١٦٠ ص ؛ ٢٤ سم
تدمك : ٠-٨٩-٦١٦٩-٩٧٧-٩٧٨
العالم العربى – تاريخ – التاريخ العام للعرب
أ. العنوان ٩٥٣,٠٧٣

بسم الله الرحمن الرحيم

(فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۗ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ۖ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا)

صدق الله العظيم
طه ١١٤

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

العرب قبل الإسلام مصطلحٌ يُعبِّرُ عن أحوال العرب السياسية والاقتصادية والثقافية والاجتماعية في شبه الجزيرة العربية والمناطق التي سكنها العربُ قديماً قبل انتشار الإسلام، وتقع هذه المناطق جغرافيّاً ضمن ما يُعرف باسم الصفيحة العربية ولقد تعرض تاريخ العرب قبل الإسلام إلى الإهمال في بداية العصور الإسلامية لأسبابٍ دينيّةٍ ، وبدأت الدراسات عن تاريخ العرب القديم وشبه الجزيرة العربية بشكلٍ عامّ في العصر الحديث، تحديداً في القرن التاسع عشر، حيث أبدى المستشرقون اهتماماً كبيراً بدراسة هذا المجال فقد تمكنوا من ترجمةِ ونشرِ عددٍ كبيرٍ من النقوش المكتشفة، وكذلك صياغةِ التاريخ بشكل علميّ، معتمدين على المصادر الأوليّة القديمة التي أشارت إلى حياة العرب في تلك الأزمنة.

أما الحديث عن العرب بعد الاسلام فيشمل الفترة التى تمتد منذ أن أصبح للمسلمين شوكة إلى أن تمكنت الامبريالية العالمية من تطويع بعض الفكر الاسلامى وجعلته ينصاع لما تمليه عليه من أفكار يخالف بعضها ما أمر الله به رسوله ان يبلغه لنا وهذا هو السبب الرئيسى الذى أوصل الأمة إلى ماهى عليه الآن لكن فى الأساس نحن نتحدث عن الفترة التاريخية التى تلت الاسلام وتمتد حتى الآن .

وما يعنينا هنا هو بعض ملامح المنطقة العربية فى ظل الاسلام وهذا ما استتبع أن نتحدث عن المنطقة العربية قبل الاسلام لكى نرى معاً مقدار التغيير الذى أحدثته دعوة الاسلام فى الفكر والثقافة والأوضاع الاجتماعية والسياسية فى المنطقة.

أسامة عبد الرحمن

الباب الأول

وضع بلاد العرب قبل الاسلام

بلاد العرب

كانت الجزيرة العربية في الفترات التاريخية القديمة أرضاً شديدة الخصوبة بها أنهار جارية، وتم اكتشاف بقايا حيوانات ضخمة في الجزيرة العربية، ففي غرب الجزيرة العربية، تم اكتشاف بقايا فيلة ضخمة وقطط حادة الأسنان وضباع،وفرس النهر، وزراف وبقر وغزلان وتماسيح وسلاحف وأسماك، وكذلك جذور أشجار متحجرة يصل طول بعضها إلى عشرة أمتار، وفي جنوب الجزيرة العربية تم اكتشاف آثار ديناصورات بعضها لآكلي اللحوم والبعض لديناصورات آكلة نباتات، إضافة لاكتشاف بيضة ديناصور في منطقة أرحب اليمنية وفي غرب الجزيرة العربية، تم اكتشاف عظام ديناصور يصل طوله إلى ١٢ متر وبيضة ديناصور في ينبع تعتبر الأكبر من نوعها عالميًا.

وتشير الأبحاث إلى أن شعب الجزيرة العربية كان على هيئة جماعات منظمة تحترف الزراعة والرعي والصيد ذلك حتى منتصف العصر الهيليوسيني وشكل ذلك الشعب العرق السامي الذي تعرض لدراسات لتحديد معالمه وثقافته، وقد أظهرت الشعوب السامية احتفاظها بالكثير من الخصائص الدينية واللغوية المشتركة، منها مصطلحات متنوعة إدارية كملك وتدل على أنه كان لهم تنظيم سياسي موحد أو على الأقل تنظيمات منحدرة من أصل سياسي مشترك لايبعد كثيرًا عن فترات التدوين التاريخي ولكن الإتساع الجغرافي للجزيرة

العربية وطبيعة توزع موارد المياه كانت بعكس مصر مثلاً سبباً في صعوبة استمرار الكيان السامي تحت حكومة موحدة وبحسب بعض الدراسات أن اللغة العربية هي أكثر اللغات السامية احتفاظا بخصائص اللغة السامية الأم لكن التغيرات المناخية العالمية في أواخر عصر الهيليوسين حيث بدأت الأمطار تقل في الجزيرة العربية وتجف الأنهار سبباً في اتجاه سكان الجزيرة العربية تدريجياً إلى الشمال بما عرف بالهجرات السامية إلى حيث الوفرة المائية من الأنهار كدجلة والفرات ويقول بعض العلماء أن الجزيرة العربية قبل ذلك كانت أكثر إغراء للعيش فيها من العراق أو الشام حيث يلاحظ العلماء أن فترة نهاية المستوطنات في الجزيرة العربية مثل مستوطنات ثقافة العبيد كان مترافقاً مع ظهور المستوطنات في بلاد ما بين النهرين، أواخر فترات ما قبل التاريخ.

وبعد نشأة الهجرات السامية أطلقت كل جماعة منهم اسماً تسمت به، أما أول ظهور تاريخي لكلمة عرب فقد كان في معركة قرقر في سنة (٨٥٣ ق.م) وأطلق هذا الاسم في البداية على سكان شمال الجزيرة العربية وبالذات مقترناً بالقيداريين، ثم توالى ذكر العرب في النصوص التاريخية بعد ذلك بشكل متسارع حتى شملت كلمة عرب ليس فقط سكان شمال الجزيرة العربية بل كل سكانها حتى الجنوب، وقد قسم المؤرخون المسلمون أصول العرب إلى ثلاث طبقات: وهم العرب العاربة، العرب المستعربة، والعرب البائدة تلك التقسيمات

بالإضافة إلى أن تسمية عدنانيين وقحطانيين لم تكن موجودة قبل الإسلام ولم يعرفها الأدب الجاهلي إنما وجدت بعد الإسلام في الفترة الأموية حيث أصبح اليمنيون أو عرب الجنوب كما يسميهم المستشرقون من جهة وعرب باقي الجزيرة العربية الشماليون بحسب المستشرقين من جهة أخرى يتبارون في المفاخرة وكل فئه تنسب أصل العروبة لها فاليمنيون يقولون منّا يعرب ونحن أصل العرب والشماليون يقولون نحن فقط بني أسماعيل أبو العرب وأنتم لستم منه، والمعروف أن العرب جميعهم من ولد إسماعيل بن إبراهيم النبي، وتشير المصادر التاريخية القديمة إلى أن العرب عرفوا باسم الإسماعيليين حتى فترات قريبة من الإسلام، وتذكر الكتب السماوية قصة البشارة حيث نجد أن الله وعد نبيه إبراهيم الخليل بأن إبنه إسماعيل الابن البكر لأمه هاجر سيكون من عقبه أمة كبيرة، ويذكر في سيرة الخليل إبراهيم أنهم لما بلغوا بئر سبع بفلسطين صلى على إبنه الأكبر إسماعيل، وأمته من العرب وقد ورد في القرآن الكريم استجابة الله لإبراهيم عندما دعا ربه قائلا : رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ،وجاء في التوراة:(وأما إسماعيل قد سمعت لك فيه، ها أنا أباركه وأثمره وأكثره كثيراً جداً إثني عشر رئيساً يلد واجعله أمة كبيرة) أما العرب البائدة فهم الأقوام القديمة التي لم يبق لها ذكر،

بعض الشعوب العربية التي ذكرت في المصادر القديمة ثم اختفت هي: (العماليق، ثمود، القيداريين، مديانيين، دادانيين) وظهر من الجزيرة العربية الهكسوس الذين نزحوا من الشمال واستولوا علي الدلتا بشمال مصر في الألفية الثانية ق.م.

ولم يرد ذكر لإسماعيل في أي كتابة قديمة ولاتوجد دلائل أن العرب قبل الإسلام كانوا يعرفونه فكلمة عربي في كل النصوص القديمة تعني البدوي سواء كان في الجزيرة العربية أو صحراء مصر وهي المكان التي ذكر التوراة أن إسماعيل وأمه المصرية نزلوا بها أما اليمنيون فلم يعرفوه البتة وكانوا يعتقدون أنهم أبناء آلهتهم .

وتمتد بلاد العرب التاريخية من الجزيرة العربية جنوبًا حتى تركيا شمالًا، ويحدد بلينوس (القرن الأول الميلادي) حدودها الشمالية بجبال أمانوس (لواء الإسكندرونة الآن) من الجهة اليمنى ومن الجهة اليسرى منطقة الرها في تركيا اليوم التي تقع في المنطقة العربية بحسب المؤرخين اليونان والرومان، هناك أسس العرب مملكة الرها في القرن الثاني للميلاد ووجود الشعوب العربية في تلك المنطقة يرجع لأقدم من ذلك بكثير، وآخر من هاجر إلى هناك هم بنو شيبان من بكر بن وائل بعد حرب البسوس وكانوا تابعين للمناذرة، واليوم فمعظم عرب الرها هم من عرب المحلمية الشيبانيين وبعض عرب محافظة ديار بكر التركية التي لا تزال تحتفظ باسمها القديم، ومن الشرق تواجد العرب في منطقة الأهواز، وعموماً يغلب على مناطق جنوب

ووسط الجزيرة الفراتية وجنوب الشام العنصر العربي فيما عدا المناطق الجبلية الساحلية وأقصى شمال الجزيرة الفراتية حيث يخالطهم فيها أقوام ساميون آخرون ومن كبريات المدن العربية في الجزيرة الفراتية نصيبين وسنجار وتكريت والموصل.

وتعد شبه الجزيرة العربية وتسمى كذلك شبه القارة العربية هي أكبر جزء من بلاد العرب، وتقسم كالتالي:

عند اليونان والرومان :قسم جغرافيوا اليونان الجزيرة العربية إلى ثلاثة أقاليم رئيسية وهي:العربية البترائية تقع شمال غرب الجزيرة بين جنوب الشام وشرق فلسطين وعاصمتها بصرى.

العربية السعيدة تقع جنوب الجزيرة العربية في اليمن وأجزاء من عمان والسعودية.

العربية الصحراوية تضم بقية شبه الجزيرة العربية خصوصاً نجد.

أما الساحل الشرقي للجزيرة العربية فليس جبليًا ولا صحراويًا ويتكون من سهول منبسطة قليلة التضاريس وينحدر حتى يصل إلى الخليج العربي.

عند المؤرخين المسلمين :الحجاز:الجزء الغربي من شبه الجزيرة العربية ونجد:هضبة واسعة وسط شبة الجزيرة العربية أما البحرين:الجزء الشرقي من شبه الجزيرة العربية ويمتد من عمان إلى البصرة شمالاً واليمن:الجنوب الغربي من شبه الجزيرة العربية ويمتد

من ظفار جنوباً إلى عسير شمالاً بمعنى كل ماهو جنوب مكة فهو يرجع إلى اليمن.

تهامة:السهل الساحلي المحاذي للبحر الأحمر.

ويرى العلماء أن ريموم الذي حكم البحرين في حوالي ١٧٥٠ ق.م كان أصله وبحسب النقش من جرم، التي هي مدينة هجر (الإحساء اليوم)، تحدثت المؤلفات اليونانية عن مدينة ذات ثراء فاحش هي مدينة دعوها جرهاء، أدواتهم المنزلية من الذهب والفضة وجدرانها وسقوفها مرصعة بالأحجار الكريمة والعاج وموشاة بالذهب والفضة، تجارتهم برية وبحرية ، البحرية تصل للهند والصين وفارس والبرية تنقل إلى سوريا وفلسطين والأردن (سلع) وتسير مراكبهم حتى تبلغ بابل ومن هناك تكمل الطريق في الفرات ثم يتم تحميلها في قوافل لتنتشر البضائع إلى كل مناطق البلد، يرى بعض العلماء أن جرهاء هي النطق الهلنستي لهجر من حوالي ٢٢٠ ق.م قامت مملكة في الأحساء عرف ملوكها بملوك هجر معلوماتنا عنهم ناتجة عن دراسة لعملاتهم التي نقشت عليها اسماؤهم بخط المسند وقد تحول بعض سكان شرق الجزيرة العربية إلى المسيحية وعين لهم أساقفة في أربع أسقفيات هي أسقفية هجر وأسقفية دارين وأسقفية سماهيج وأسقفية مازون.

أوضاع العرب قبل البعثة

لنتعرف على الظروف والأوضاع التي كانت تحكم المجتمع والمنطقة أنذاك، والتي انطلقت فيها دعوة النبي (ص)إلى الإسلام فقد كانوا أمة قبلية وعبدة للأصنام وعلى المستوى الديني كانت الوثنية هي الديانة الكبرى في شبه الجزيرة العربية وكانت عقيدة الشرك وعبادة الأصنام متفشية بين سكان هذه المنطقة ويكفي أن نذكر أن عبادتهم للأصنام كانت ملونة باللون القبلي وسوف نستعرض في حديثنا هنا، الظروف والأوضاع الدينية والسياسية والاجتماعية والأخلاقية التي كانت سائدة في العصر الجاهلي في شبه الجزيرة العربية، أي في منطقة الحجاز وجوارها.

على المستوى الديني

على المستوى الديني كانت الوثنية هي الديانة الكبرى في شبه الجزيرة العربية وكانت عقيدة الشرك وعبادة الأصنام متفشية بين سكان هذه المنطقة ويكفي أن نذكر أن عبادتهم للأصنام كانت ملونة باللون القبلي، فلكل قبيلة، بل لكل بيت وثن وطريقة في العبادة ورغم أنهم كانوا يعتقدون فىوجود الله وخلقه للكون، إلا أنهم كانوا يرون أن عبادتهم للأصنام تقربهم من الله، وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك

بقوله تعالى: والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى.

على المستوى السياسي

أما على المستوى السياسي، فإن سكان شبه الجزيرة العربية أنذاك لم يخضعوا لأي سلطة أو نظام غير سلطة القبيلة، وبسبب أن معظم سكان هذه المنطقة، كانوا من البدو الرحل الذين يمسون في مكان ويصبحون في مكان أخر، وبسبب رفضهم لجميع أنواع التسلط الذي يحدّ من حرية الأفراد والأسرة والقبيلة وبعض العوامل الاقتصادية نظراً لأن طبيعة المنطقة صحراوية لا تصلح للزراعة والعمل ولا تساعد على الاستقرار لتنظيم الحياة والانتاج لأجل كل ذلك فهذه المنطقة بقيت بعيدة عن سيطرة الدول الكبرى ونفوذها آنذاك، كدولة الفرس ودولة الرومان فلم تخضع المنطقة العربية لحكم ونظام أي من الرومان أوالفرس أوالأحباش، ولم تتاثر بمفاهيمهم وأديانهم كثيراً.

ومن هنا فقد نشأت من هذا الوضع ظاهرة الدويلات القبلية، فكان لكل قبيلة حاكم، ولكل صاحب قوة سلطان، ولم يكن يجمعهم نظام واحد. أو سلطة سياسية واحدة، إنما كانوا يعيشون فراغاً سياسياً في هذا الجانب.

الوضع الاجتماعي

أما الوضع الاجتماعي، فإن الحياة الصعبة، التي كان يعيشها الإنسان العربي في البادية والحكم القبلي وعدم وجود روادع دينية أو وجدانية قوية دفع القبائل إلى ممارسة الحرب والاعتداء بعضهم على بعض كوسيلة من وسائل الحصول على مقومات العيش أحياناً، وأحياناً لفرض السيطرة، وأحياناٍ أخرى للثأر والقصاص فكانت هذه القبيلة تغير على تلك القبيلة وتستولي على أموالها وتسبي نسائها وأطفالها،وتقتل أو تأسر من تقدر عليه من رجالها ثم تعود القبيلة المنكوبة لتتربص بالقبيلة التي غلبتها وهكذا لذلك فمن يطالع كتب التاريخ يرى بوضوح إلى أى حد كانت الحال الاجتماعية متردية في ذلك العصر فالسلب والنهب والإغارة والتعصب القبلي كان من مميزات ذلك المجتمع وكانت لأتفه الأسباب تحدث بينهم حروب طاحنة ومدمرة يذهب ضحيتها آلاف الناس.

ولعل أبرز الأمثلة على ذلك ما عرف بحرب داحس والغبراء ولعل أفضل مرجع للتعرف إلى ملامح الوضع الاجتماعي في العقد الجاهلي هو كلمات أمير المؤمنين (عليه السلام) التي يصف فيها حال العرب قبل بعثة النبي (ص)، إذ يقول في بعض كلماته : إن الله بعث محمداً نذيراً للعالمين وأمينا على التنزيل، وأنتم معشر العرب على شر دين وفي شر دار مقيمون بين حجارة خُشن وحيات سم تشربون الكدر

وتأكلون الجشب (الطعام الغليظ) وتسفكون دماءكم وتقطعون أرحامكم، الأصنام فيكم منصوبة والآثام بكم معصوبة.

وكان النسب هو العامل الفصل في مكانة الفرد فمن ولد في عشيرة كثيرة الأنفس ومنها أعيان المدينة فهو عزيز ومنيع في تعبير ذلك الزمن ويعني في المصطلحات الحديثة مواطن لدولة قوية، أما من كان من عشيرة صغيرة وليس لها أعيان متبعون وفيهم المشورة فهو حر وليس عزيزاً فلا يتجرأ على من ينتمي إلى العشائر الأقوى وإلا تعرض لأشد العقاب من تلك العشيرة ولاتستطيع عشيرته حمايته وإلا تعرضت هي الأخرى لما تكره، أما الأحلاف وهم بتعبير اليوم الوافدون فكانت مكانتهم أقل من الأحرار فهم إما خلعاء من عشائرهم الأصلية أو قدموا للإقامة لأسباب أخرى فكانوا يربطون أنفسهم مع من نزلوا عنده فكان بمنزلة الكفيل اليوم فكان يقال فلان مولى فلان، وهم في حماية أحد الأفراد في عشيرة تلك المدينة، أما العبيد فمكانتهم منحطة لا حقوق لهم ويتم استغلالهم للعمل في الأمور التي يأنف منها اصحاب النسب وحين يكبر المجتمع العربي فإنه يحتاج لنظام للمشورة مثل مجالس الشورى والبرلمان.

كان اهتمام العرب قبل الإسلام بالمرأة استثناءاً بين الأمم، فاهتموا بحفظ كرامتها وسترها، فكان للنساء خدر في المسكن ويوفر السجف وهو الساتر يكفل لهم الحرية والخصوصية وفي الخارج كانت النساء تلبس مايسترها وتركب في الهودج عند السفر لكى لايراها

الغرباء وكان من النساء قبل الإسلام الطبيبة كالشفاء بنت عمرو وسيدة الأعمال كخديجة بنت خويلد ووصلت المرأة إلى مراتب عليا كما هو حال بلقيس ملكة سبأ، وزنوبيا ملكة تدمر، وزبيبة وشمسي ملكات قيدار، ومناصب كبيرة لا سيما عند الأنباط ولم يقتصر دورها في الحياة الاجتماعية بل وفي صلب الحياة السياسية، وحتى في مجال العلاقات القبلية، فكثيراً ما كانت النساء تشارك في حل النـــزاعات بين القبائل، أو تأجيج الخلافات وإشعال الحروب، كما فعلت البسوس في الحرب التي سميت على اسمها، وهند بنت عتبة في معركة أُحُد وعائشة بنت أبي بكر في موقعة الجمل، ولكن مشاركة المرأة السياسية عموماً كانت من وراء ستار، الأمر الذي جعل مشاركتها هامشية حيناً ومستترة أحياناً، أو غير مدونة ولم يأتي على ذكرها أحد، فالتي أسعفها الحظ وبرزت دخلت بوابة التاريخ وذُكرت في سجلاته، والتي لم يسعفها الحظ طواها النسيان وقد سجلت لنا المصادر التاريخية نساء كثيرات بنَيْنَ لأنفسهن قصص نجاح مميزة، أو تميّزن بالشخصية القوية أو برجاحة العقل، فزرقاء اليمامة مثلاً كانت تستشرف بذكائها ما وراء الأفق، وجهيزة قطعت ببلاغتها قول كل خطيب، وخديجة بنت خويلد كانت تجارتها تعادل ثلث تجارة مكة بأكملها، وفيلة الأنمارية كانت تاجرة مهمة تبيع وتشتري بنفسها، وخالدة بنت عبد مناف،وصحر بنت النعمان اشتهرتا بالحكمة والذكاء والكمال، وكانت العرب تتحاكم عندهن في المشاجرات

والأنساب،وهنالك خولة بنت الأزور الفارسة الشجاعة، والخنساء الشاعرة المخضرمة وبالإجمال يمكن القول أن وضع المرأة لم يكن بالصورة السيئة التي يحاول البعض رسمها، ولم تكن شخصيتها مستلبة تماماً، فمثلاً كانت المرأة تتمتع بحرية اختيار زوجها، وأن تشترط على زوجها أن تملك أمرها ولا يتزوج عليها وما تسمية بعض القبائل بأسماء الأمهات كمزينة وبجيلة وباهلة، إلا دليل على المكانة الرفيعة للمرأة في ذلك الزمان .

الوضع الخلقي

أما الوضع الأخلاقي العام، فقد كانت القسوة والفاحشة وشرب الخمر والربا ووأد البنات خشية العار والفقر هي السمات العامة للأخلاق المتفشية في المجتمع الجاهلي ويكفي أن نشير إلى بعض النماذج من العادات والتقاليد التي كانت سائدة أنذاك، والتي أشار إليها القرآن الكريم لمعرفة مدى شيوع الفاحشة وظاهرة انعدام الغيرة والتحلل الاخلاقي في تلك المجتمعات الجاهلية كما كان من عاداتهم القبيحة أيضاً الطواف حول الكعبة وهم عراة، سواء الرجال والنساء وكان الرجل إذا هدده الإفلاس وشعر أنه سيصاب بالفقر كان يبادر إلى قتل أولاده خوفاً من أن يراهم أذلاء جائعين ولقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك، بقوله تعالى : ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وأياهم .

كما أننا نستطيع معرفة مدى شيوع ظاهرة وأد البنات ودفنهن وهن أحياء من تعرض القرآن الكريم لهذه العادة وإدانته لهذه الجريمة وتعنيفه لتلك المجتمعات على هذا السلوك الوحشي فقد قال تعالى : وإذا المؤدة سئلت بأي ذنب قتلت، وقال أيضاً :وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم يتوارى من القوم من سوء ما بشر به.

السجايا العربية

عرفت الأمم الأخرى عن العرب صفات كثيرة كانت هذه الفضائل والأخلاق الحميدة رصيداً ضخماً في نفوس العرب، فجاء الإسلام فنماها وقواها، ووجهها وجهة الخير والحق، فلا عجب إذا كانوا انطلقوا من الصحاري كما تنطلق الملائكة الأطهار، فتحوا الأرض، وملئوها إيماناً بعد أن ملئت كفراً، وعدلاً بعد أن ملئت جوراً، وفضائل بعد أن عمتها الرذائل، وخيراً بعد أن طفحت شراً .

هذه بعض أخلاق المجتمع الذي تنتشر فيه الفضيلة فبذلك يكون مؤهلاً لحمل الرسالة الإسلامية، وإنما اختير من هذه البيئة البكر؛ لأن الأقوام الأخرى وإن كانوا على ما هم عليه وما هم فيه من فلسفة ومعارف، إلا أنهم لم يصلوا إلى ما وصل إليه العرب من سلامة الفطرة، وحرية الضمير، وسمو الروح.

الذكاء والفطنة :فقد كانت قلوبهم صافية، لم تدخلها تلك الفلسفات والأساطير والخرافات التي يصعب إزالتها، كما في الشعوب المجاورة، فكأن قلوبهم كانت تعد لحمل أعظم رسالة في الوجود وهي دعوة الإسلام الخالدة؛ ولهذا كانوا أحفظ شعب عرف في ذلك الزمن، وقد وجه الإسلام قريحة الحفظ والذكاء إلى حفظ الدين وحمايته، فكانت قواهم الفكرية، ومواهبهم الفطرية مذخورة فيهم، لم تستهلك في فلسفات خيالية، وجدال بيزنطي عقيم، ومذاهب كلامية معقدة وكان من

أمر فطنتهم أنهم يستخدمون الإشارة فضلا عن العبارة، وشواهد ذلك كثيرة.

الكرم والسخاء: كان هذا الخُلُق متأصلاً في العرب، وكان الواحد منهم لا يكون عنده إلا فرسه، أو ناقته، فيأتيه الضيف، فيسارع إلى ذبحها، أو نحرها له، وكان بعضهم لا يكتفي بإطعام الإنسان بل كان يطعم الوحش، والطير، وكرم حاتم الطائي سارت به الركبان، وضربت به الأمثال.

المروءة والنجدة : كانوا يتمادحون بالموت قتلاً، ويتهاجون بالموت على الفراش قال أحدهم لما بلغه قتل أخيه: إن يقتل فقد قتل أبوه وأخوه وعمه، إنا والله لا نموت حتفًا، ولكن قطعًا بأطراف الرماح، وموتًا تحت ظلال السيوف:

وما مات منا سيد حتف أنفه ولا طُلّ منا حيث كان قتيل

تسيل على حد الظباة نفوسنا وليست على غير الظباة تسيل

وكان العرب لا يقدمون شيئاً على العز وصيانة العرض، وحماية الحريم، واسترخصوا في سبيل ذلك نفوسهم قال عنترة العبسي :

بكَرَت تخوفني الحُتوف كأنني أصبحت عن غرض الحتوف بمعزلِ

فأجبتها إن المَنية منهل لا بد أن أُسقى بكأس المنهلِ

فأسقني حياءك لا أبا لك واعلمي أني امرؤ سأموت إن لم أقتل

وقال :

لا تسقني ماء الحياة بذلة بل فاسقني بالعز كأس الحنظل

ماء الحياة بذلة كجهنم وجهنم بالعز أطيب منزل

وكان العرب بفطرتهم أصحاب شهامة ومروءة، فكانوا يأبون أن ينتهز القوي الضعيف، أو العاجز، أو المرأة أو الشيخ، وكانوا إذا استنجد بهم أحد أنجدوه ويرون من النذالة التخلي عمن لجأ إليهم.

عشقهم للحرية، وإباؤهم للضيم والذل : كان العربي بفطرته يعشق الحرية، يحيا لها، ويموت من أجلها، فقد نشأ طليقًا لا سلطان لأحد عليه،

ويأبى أن يعيش ذليلاً، أو يمس في شرفه وعرضه ولو كلفه ذلك حياته، فقد كانوا يأنفون من الذل ويأبون الضيم والاستصغار والاحتقار وتتكرر تلك القيمة مرارا في الشعر الجاهلي، ولاتجد شعوبا أخرى تتسلط عليهم وتحتلهم طوال تاريخهم، وأشاد هيرودوتس بحب العرب للحرية، وحفاظهم عليها ومقاومتهم لأية قوة تحاول استرقاقهم واستذلالهم.

الوفاء والصدق : أما وفاؤهم: فقد قال النعمان بن المنذر لكسرى في وفاء العرب: وإن أحدهم يلحظ اللحظة ويومئ الإيماء فهي وكث وعقدة لا يحلها إلا خروج نفسه، وإن أحدهم يرفع عودًا من الأرض فيكون رهنًا بدينه فلا يُغلق رهنه ولا تخفر ذمته، وإن أحدهم ليبلغه أن

رجلاً استجار به، وعسى أن يكون نائياً عن داره، فيصاب، فلا يرضى حتى يفنى تلك القبيلة التي أصابته، أو تفنى قبيلته لما أخفر من جواره، وأنه ليلجأ إليهم المجرم المحدث من غير معرفة ولا قرابة فتكون أنفسهم دون نفسه وأموالهم دون ماله والوفاء خلق متأصل فى العرب، فجاء الإسلام ووجهه الوجهة السليمة، فغلظ على من آوى محدثًا مهما كانت منزلته وقرابته، قال رسول الله: لعن الله من آوى محدثا ومن القصص التي توضح شيمة الوفاء عندهم: أن الحارث بن عباد قاد قبائل بكر لقتال تغلب وقائدهم المهلهل الذي قتل ولد الحارث، وقال: بؤ بشسع نعل كليب في حرب البسوس، فأسر الحارث مهلهلاً وهو لا يعرفه، فقال دلني على مهلهل بن ربيعة وأخلي عنك، فقال له: عليك العهد بذلك إن دللتك عليه، قال: نعم قال: فأنا هو، فجز ناصيته وتركه وهذا وفاء نادر ورجولة تستحق الإكبار ومن وفائهم: أن النعمان بن المنذر خاف على نفسه من كسرى لما منعه من تزويج ابنته فأودع أسلحته وحرمه إلى هانئ بن مسعود الشيباني، ورحل إلى كسرى فبطش به، ثم أرسل إلى هانئ يطلب منه ودائع النعمان، فأبى، فسير إليه كسرى جيشًا لقتاله فجمع هانئ قومه آل بكر وخطب فيهم فقال: يا معشر بكر، هالك معذور، خير من ناج فرور، إن الحذر لا ينجي من قدر، وإن الصبر من أسباب الظفر، المنية ولا الدنية، استقبال الموت خير من استدباره، الطعن في ثغر النحور، أكرم منه في الأعجاز والظهور، يا آل بكر قاتلوا فما للمنايا من بد، واستطاع

بنو بكر أن يهزموا الفرس في موقعة ذي قار، بسبب هذا الرجل الذي احتقر حياة الصغار والمهانة، ولم يبال بالموت في سبيل الوفاء بالعهود.

الصبر على المكاره وقوة الاحتمال، والرضا باليسير : كانوا يقومون من الأكل ويقولون: البطنة تذهب الفطنة، ويعيبون الرجل الأكول الجشع، قال شاعرهم:

إذا مدت الأيدي إلى الزاد لم أكن أعجلهم إذا أجشع القوم أعجل

وكانت لهم قدرة عجيبة على تحمل المكاره والصبر في الشدائد، وربما اكتسبوا ذلك من طبيعة بلادهم الصحراوية الجافة، قليلة الزرع والماء، فألفوا اقتحام الجبال الوعرة، والسير في حر الظهيرة، ولم يتأثروا بالحر ولا بالبرد، ولا وعورة الطريق، ولا بعد المسافة، ولا الجوع، ولا الظمأ، ولما دخلوا الإسلام ضربوا أمثلة رائعة في الصبر، والتحمل وكانوا يرضون باليسير، فكان الواحد منهم يسير الأيام مكتفيا بتمرات يقيم بها صلبه، وقطرات من ماء يرطب بها كبده.

قوة البدن وعظمة النفس : واشتهروا بقوة أجسادهم مع عظمة النفس وقوة الروح، وإذا اجتمعت البطولة النفسية مع البطولة الجسمانية صنعتا العجائب، وهذا ما حدث بعد دخولهم في الإسلام كما كانوا ينازلون أقرانهم وخصومهم، حتى إذا تمكنوا منهم عفوا عنهم

وتركوهم، يأبون أن يجهزوا على الجرحى، وكانوا يرعون حقوق الجوار،لا سيما رعاية النساء والمحافظة على العرض قال شاعرهم:

وأغض طرفي إن بدت لي جارتي حتى يواري جارتي مأواها

الوضع الاقتصادي

اقتصاد الجزيرة العربية في ذلك الوقت كان يعتمد على شبكة التجارة العربية القديمة، بالإضافة لذلك فهناك أنشطة اقتصادية متعددة منها الزراعة التي ازدهرت في بعض المناطق بالرغم من عدم وجود أنهار دائمة في الجزيرة العربية، فاستعمل العرب قديما أنظمة السدود وقنوات الري خصوصاً في اليمن وشرق الجزيرة العربية ووادي القرى شمال الحجاز والطائف ، وتلك المناطق انتجت أصنافاً من الحبوب والفاكهة والزراعة في المناطق الأخرى من الجزيرة العربية اعتمدت على زراعة نخيل التمر بشكل أساسي، اقتصاد مكة كان متيناً حيث كانت مركزاً تجارياً ودينياً هاماً نظراً لمرور القوافل التجارية القادمة من الشمال والجنوب بها، وترجع أهميتها الدينية لوجود الكعبة المقدسة فيها، والتي يفد إليها الحجاج كل عام مما كان يساعد على الازدهار الاقتصادي كذلك.

كانت قريش أهل تجارة قد أوسر سادتها من ورائها فكانت عيرهم تنطلق صيفاً إلى الشام وفلسطين ومصر وشتاء كانت هذه القوافل تتجه جنوباً لليمن وكانت القوافل التجارية الكبرى تتجه غادية

رائحة فكانت تمر بأطراف شبه الجزيرة العربية علي ثلاثة محاور رئيسية حيث كان هناك طريق القوافل الجنوبي الشمالي تقطعها من جدة بالحجاز إلي الشام وسيناء ومصر والطريق الثاني يقع في أطراف شرق الجزيرة العربية متجهاً من الخليج العربي جنوب العراق ليصل لبلاد الرافدين شمالاً، ليعرج منها على الشام إلي دمشق لتصل هذه القوافل لبلاد الشام وفلسطين والطريق الثالث كان يقع غرب الجزيرة العربية ويمر بحذاء ساحل البحر الأحمر ويبدأ من اليمن عبر جدة فالمدينة ليتجه شمالاً للشام والبتراء فى الأردن وهذه الرحلات الموسمية صيفاً وشتاءاً ظل عليها العرب مبقين.

هذه هي أوضاع المجتمع العربي وأحواله في شبه الجزيرة أنذاك ومن قلب هذا المجتمع وهذا الجو القبلي المعقد والمشرذم الذي توافرت فيه كل أنواع الفساد والبعد عن القيم والأخلاق وأصبح بحاجة إلى عملية تغيير شاملة خرج رسول الله (ص) ليكون قائد عملية التغيير هذه ولقد استطاع هذا الرسول العظيم في مدة وجيزة جداً أن ينقل هذه الأمة من حضيض الذل والمهانة إلى أوج العظمة والعزة والكرامة وأن يغير فيها كل عاداتها ومفاهيمها، وأن يقضي على كل أسباب شقائها وآلامها.

الباب الثانى

الوضع فى مصر قبل الفتح

أوضاع مصر عشيَّة الفُتوح الإسلاميَّة

الوضع السياسي

كانت الأوضاع السياسيَّة في مصر عشيَّة الفتح الإسلامي مُضطربة نتيجة قُرونٍ من الاستغلال الروماني والبيزنطي فقد اتّصف الحُكمُ الرومانيُّ لِمصر بالتعسُّف، وبرع الرومان في ابتكار الوسائل التي تُتيح لهم استغلال موارد البلاد ففرضوا على المصريين نُظُمًا ضريبيَّةً مُتعسِّفة شملت الأشخاص والأشياء والصناعات والماشية والأراضي، فضاق المصريُّون ذرعًا بها وقاموا بِعدَّة ثورات ضدَّ الحُكم الروماني لعلّ أشهرها تلك التي قامت في عهد الإمبراطور ماركوس أورليوس (١٦١ – ١٨٠م)،وتُعرف بِحرب الزراع أو الحرب البوكوليَّة نسبةً إلى المنطقة المعروفة باسم بوكوليا الواقعة في شمالي الدلتا، ولكنَّ الرومان كانوا يقضون على هذه الثورات في كُل مرَّة وبعد انقسام الإمبراطوريَّة الرومانيَّة إلى قسمين شرقي وغربي، تبعت مصر الإمبراطوريَّة الشرقيَّة أو البيزنطيَّة كان الحُكمُ البيزنطيُّ لِمصر، مُباشرًا ومُستبدًا، يُدارُ بواسطة حاكمٍ يُعيّنهُ الإمبراطور، لكنَّ الحُضور السياسي كان ضعيفًا، ممَّا أدّى إلى انعدام التوازن في العلاقة بين الحُكم المركزي والشعب المصري وكان المظهر الوحيد للسِّيادة المركزيَّة والإدارة التي تؤمِّن مصالح الدولة الحاكمة، هُو وُجود مراكز عسكريَّة في المُدن الكُبرى، وبعض الحاميات المُنتشرة في الداخل

وكانت مصر، بوصفها مُرتبطة مُباشرةً بالحُكم المركزي، تتأثر بما كان يحدث في البلاط البيزنطي من صراعاتٍ ومُؤامراتٍ من أجل السُلطة فتعرَّض المصريّون لِأشد أنواع المُضايقات في عهد الإمبراطور فوقاس (٦٠٢ - ٦١٠م)، فما اشتهر به عهده من المُؤتمرات والاغتيالات، إنّما حدّد الإطار الخارجيّ الذي جرى في نطاقه من العوامل مما أدّى إلى انتشار الفوضى والتفكّك البطيء في الحُكومة والمُجتمع وقد تأثّرت مصر بِذلك، فامتلأت أرض الصعيد بِعصابات اللُصوص وقُطّاع الطُرق، وغزاها البدو وأهل النوبة واضطربت أوضاع مصر السُفلى أيضاً وأضحت ميدانًا للشغب والفتن والثورات بين الطوائف، التي كانت توشك في بعض الأحيان أن تتحوّل إلى حُروبٍ أهليّة وانصرف الحُكّام إلى جمع المال لِخزينة الإمبراطوريّة بِغض النظر عن مشروعيّة الوسائل أو عدم مشروعيّتها، فاضطرمت مصر بِنار الثورة وتعرّضت الإمبراطوريّة في هذه الأثناء إلى كارثةٍ خطيرة، إذ هُزمت عسكريًّا في البلقان وآسيا الصُغرى والشّام، واجتاحتها الجُيوش الفارسيّة الساسانيّة ثُمّ شرع الفُرس فى غزو مصر، فسقطت الإسكندريّة في أيديهم سنة ٦١٩م، ولم تلبث مصر كُلّها أن أضحت تحت حُكمهم وشعر المصريّون بِحُريّة لم يعهدوها من قبل في ظل حُكم فوقاس، ذلك أنّ الفُرس تركوا لهم أمر الحُكم على نحوٍ من اللامركزيّة المألوفة في بلادهم، وأسقطوا عنهم كثيرًا من الأعباء التي كانت تُرهقهم وإن ظلّوا مُتعالين عليهم بوصفهم الطبقة الحاكمة وهكذا استهلّ القرن السابع

الميلاديّ والإمبراطوريّة البيزنطيّة تسيرُ في طريق الانحدار، ولم يُنقذ الموقف إلّا ثورة حاكم أرخونيّة إفريقية هرقل الأكبر، على حُكم فوقاس، وانحازت إليه مصر، ونجح هرقل في خلع فوقاس وتولّى ابنه هرقل الأصغر الحُكم وبفضل ما اتخذه من تدابير إصلاحيّة، عسكريّة وإداريّة، نهض لقتال الفُرس، واستردّ ما فقدته الإمبراطوريّة البيزنطيّة على أيديهم، فاستعاد الشّام ومصر وكان المصريّون يأملون أن يجدوا في الحُكم الجديد سيرًا أرفق بهم ممّا كانوا يُعانونه من عسف فوقاس، وبأن يُكافأهم هرقل على مُساندتهم له، وألّا يُرهقهم حُكمه والواقع أنّهُم لم يشعرُوا بِخيبة أملٍ بالغة في بادئ الأمر، إذ ليس ثمّة ما يدعو إلى الشك بأنّ هرقل كان حريصاً على أن يستقطب المصريين، وكان واليه على مصر نيقتاس يرى لزاماً عليه أن يُجزيهم على ما قدّموه من خِدمة للإمبراطوريّة لكن سُرعان ما خاب أملهم، فقد عاد الحُكم البيزنطي إلى سيرته الأولى من التعسُّف، ممّا أدّى إلى التباعد بين الشعب وحُكّامه، كانت تُغذيه باستمرار المُحاباة القمعيّة التي ارتبطت بِآخر الحُكّام البيزنطيين، ألا وهو المُقوقس، الذي سعى إلى تنفيذ برنامج هرقل الهادف إلى تدعيم مركزيّة النظام بِضرب المذاهب المُتعارضة مع المذهب الرسمي للدولة.

الوضع الإداري

كانت مصر ولايةً رومانيّة تابعةً مُباشرةً لِروما مُنذُ سنة ٣١ ق.م، حين استولى الرومان عليها وقضوا على حُكم آخر سُلالةٍ فرعونيّة فيها، وهي السُلالة البطلميّة الإغريقيّة، واتخذها الإمبراطور أغسطس قيصر مخزنًا يمُدُّ روما بِحاجتها من الغِلال وفي سنة ٣٨١م جُعلت مصر أبرشيّةً مُستقلّة وتنُصُّ وثيقة الكرامات العرضيّة أنَّ الأبرشيّة كان يحكُمُها فيقار واتبعت ولاية الشرق الإمبراطوريّة، وضمّت ست مُقاطعات، وظلّت مصر تحت الحُكم الروماني ما يزيد على أربعة قُرون ففي سنة ٣٩٥م انقسمت الإمبراطوريّة الرومانيّة إلى قسمين شرقي وغربي وعلى الرُغم من استمرار فكرة وحدة الإمبراطوريّة، فقد حكم إمبراطوران معًا، واحد في الشرق وآخر في الغرب وفي سنة ٤٧٦م سقط القسم الغربي في أيدي البرابرة الجرمان في حين نجا القسم الشرقي الذي عُرف بالإمبراطوريّة البيزنطيّة، وعاصمته القُسطنطينيّة وكان شمال أفريقيا ومن ضمنها مصر تابعة لِهذه الإمبراطوريّة من خِلال ما كان يُعرف بِأرخونيّة إفريقية، إلّا أنّها بِظُروفها السياسيّة والدينيّة، تُعدُّ امتدادًا طبيعيًّا للشّام مع بعض الاختلاف في المدى الذي ترتبط فيه بالحُكم المركزي في القُسطنطينيّة.فقد وحّدت بينهُما الديانةُ المسيحيّة، ولكن وفقًا لِعقيدةٍ ومذهبٍ مُخالفٍ لِعقيدة الإمبراطوريّة الرسميّة.

الوضع الاقتصادي

كانت مصر إحدى أغنى ولايات الإمبراطوريّة البيزنطيّة إن لم تكن أغناها مالًا وزرعًا وخيرات وكانت بيزنطة تراها مصدرًا هاما للثراء كما كان الحال زمن الرومان، وقد اعتمد الروم على مصر لِتزويد الإمبراطوريّة بالحُبوب كما فعل أسلافهم ولم يقتصر ثِقل مصر الاقتصادي على إنتاج الحُبوب، بل تعدّاها إلى صناعة الزُجاج والتعدين وورق البردي والكثير من المُنتجات الصناعيّة الأُخرى، إلى جانب الصناعات المُتعلِّقة بالذهب والفضّة والنُحاس والبرونز؛ بالإضافة إلى تجارة التوابل من الهند والبُخُور من الحجاز واليمن والأحجار الكريمة من فارس والأخشاب من الشّام والعاج من جنوب الصحراء الكُبرى بأفريقيا، عبر أساطيلها المُنتشرة عبر البحر الأحمر وفُروع النيل، وقوافلها عابرة الصحاري وقد اعتُبرت أرض مصر خِلال الحقبتين الرومانيّة والبيزنطيّة صمام الأمان لغذاء العالم وسلّة طعامه وفاكهته، إذ كانت تُصدِّر لِروما وحدها ١١ مليون أردب من القمح، وكانت قادرةً على إطعام جميع ولايات العالم الرومي، لِدرجةٍ جعلت البيزنطيين يفرضون على المصريين من عهد قسطنطين الأوّل ضرائب غذائيّة وأشهرها ضريبة القمح والشعير والفول والكتّان والزيتون وكانت تُجمع لِصالح جيش روما وكان النظام الضريبيّ الذي فرضه الروم في مصر نظاماً جشعاً وصارماً شمل كُل الأنشطة الاقتصاديّة مثل الزراعة

والصناعة والتجارة، وكانوا دائمًا ما يُغيرون قوانينهم الضريبيّة والماليّة وطُرق جمع الضرائب حسب الظُروف من أجل إحكام قبضتهم على البلاد وكان من ضمن هذه الضرائب ضريبة الأنونا المدنيّة وكانت عبارة عن كميّاتٍ من القمح وباقي المحاصيل تُشحن من مصر إلى القُسطنطينيّة حسب احتياجاتها وكان يُطلق على هذه الشُحنة الشُحنة السعيدة وكانت الكميّة المُرسلة من الشُحنة الغذائيّة تصنع حوالي ٨٠,٠٠٠ رغيف خبز يوميًا وخلال الفترة المُمتدّة من سنة ٢٨٤م حتى ٦٤٢م، كانت ضريبة الأنونا المدنية تُدفع لِكنائس الإسكندريّة على شكل كميّاتٍ من القمح، حتّى جاء الإمبراطور جُوليان وألغى الضريبة وكانت الضرائب المفروضة على الأراضي الزراعيّة تُجبى حسب منسوب النيل، وكان للقُرى خزانة للضرائب تتصل بها إدارة للحسابات لتحديد المصروفات والجبايات يُشرف عليها موظف حُكومي رومي، يُناط به إعداد القوائم الخاصة بالضرائب، وإثبات أسماء أهل القرية، وما أدّاه كُلٌ منهم من الضرائب وقد كتب المُؤرِّخ اليهودي فيلون السَكندري يصف حال المصريين في ظل النظام الضريبي الرومي، فقال أنَّ جُباة الضرائب كانوا يستولون على جُثث أولئك الذين عجزوا عن سداد الضرائب خلال حياتهم، ثُمَّ أدركهم الموت، حتّى يُكرِهوا أقربائهم على دفع الضرائب المُتأخرة عليهم؛ استنقاذًا لجُثثهم، كما ذكر أنَّ الزوجات والأطفال وغيرهم من الأقرباء كانوا يُحشرون إلى السُجون، ويُصَبُّ عليهم التعذيب حتى يعترفون بمكان المُفلس

الهارب، فكان يحدث أن يهرب الأهالي من مُدن بِرُمَّتها بحال أفلس مُعيلهم.

الوضع الديني

كان أغلب المصريين قبل الفتح الإسلامي يُدينون بالمسيحيَّة، ومنهم قلّة تُدينُ باليهوديَّة وكانت مصر في طليعة البُلدان الشرقيَّة التي تسرَّبت إليها المسيحيَّة في القرن الأوَّل الميلادي، وانتشرت تدريجيًّا في جميع أنحاء البلاد في القرن الثاني أمَّا اليهود فوُجودهم في مصر قديم، يرجع إلى زمن النبيّ يُوسُف وفقًا للمُعتقدات الإبراهيميَّة، وقد وردت قصَّة انتقالهم إليها وخُروجهم منها في التوراة والقُرآن، لكن جُمهرةً من اليهود عادت إلى مصر آتيةً من فلسطين خِلال العهد البطلمي، فاستوطنت الإسكندريَّة وضواحيها وكان لهُم جالياتٌ أُخرى في بعض مُدن الصعيد، والفيُّوم، كما كان في البهنسا جالية يهوديَّة كبيرة وكانت تُقيم في حيٍّ خاصٍ بها وتحوَّل كثيرٌ من اليهود إلى المسيحيَّة، مع احتفاظهم بِأسمائهم القديمة وتُشيرُ بعض أوراق البردي إلى أنَّ كثيرًا من اليهود في العصر البيزنطي كانوا يشتغلون بالتجارة ويُلاحظ أنَّ المصادر التاريخيَّة القديمة والحديثة قلّما تُشيرُ إلى اليهود في مصر في ذلك العصر، ولعلّ سبب ذلك هو ما ساد هذا العصر من خِلافاتٍ مذهبيَّة ودينيَّة وسياسيَّة، ولاشكَّ أنَّ اليهود كانوا حريصين على أن يبتعدوا عن هذه الخِلافات ليُمارسوا حياتهم الدينيَّة ونشاطهم الاقتصادي بِهُدوء وتاريخُ المسيحيَّةِ في مصر يبدأ بِهجرة العائلة المُقدَّسة إليها هربًا من ظُلم حيرود الأوَّل ملك اليهوديَّة، وبعدها

بِسنوات أقبل بعض الحواريين إلى مصر داعين الناس إلى ترك عبادة الأوثان وعبادة الله، وأقبل الحواري مرقس، فأنشأ الكنيسة المرقسيّة في الإسكندريّة، التي انتقلت إليها زعامة المسيحيّة لاحقًا،وفيها كتب إنجيله وقد تعارضت التعاليم المسيحيّة مع المفاهيم الرومانيّة المُتعلّقة بِتأليه الإمبراطور وعبادته، ورفض النصارى الخدمة في الجيش الروماني، واتخذوا الأحد أوّل أيّام الأُسبوع لِيكون فُرصةً لِمُباشرة طُقوسهم الدينيّة، لِذلك رأت الحُكومة الرومانيّة أنّ اعتناق المسيحيّة جُرمٌ في حق الدولة، وعدّت النصارى فئة هدّامة، تُهدد أوضاع الإمبراطوريّة وسلامتها، فمنعت اجتماعات النصارى، ونظّمت حملات الاضطهاد ضدّهم بدأت هذه الحملات ضدّ نصارى مصر أثناء حُكم الإمبراطور سبتيموس سفيروس ١٩٣ - ٢١١م وظلّ هؤلاء يتعرّضون لاضطهادٍ كبيرٍ، وتسامُحٍ قليلٍ إلى أن تولّى دقلديانوس (٢٨٤ - ٣٠٥م) عرش الإمبراطوريّة، حيثُ بلغ اضطهادُ النصارى حدّهُ الأقصى قاوم المسيحيّون في مصر هذا الاضطهاد بِقُوّةٍ وعناد، وقد انبثقت عن هذه المُقاومة حركةً قوميّة أخذت تنمو تدريجيًّا، وليس أدلّ على ذلك من أنّ الكنيسة القبطيّة بدأت تقويمها، الذي سمّتهُ تقويم الشُهداء، بالسنة الأولى من حُكم دقلديانوس نتيجةً لِما خلّف الاضطهاد من أثرٍ كبيرٍ في نُفوس المصريين تحسّن وضع النصارى في مصر بعد أن اعترف الإمبراطور قُسطنطين الأوّل بالمسيحيّة دينًا مسموحًا به ضمن الديانات الأُخرى في الإمبراطوريّة، بِموجب مرسوم ميلانو

الشهير سنة ٣٤٣م، ثُمَّ بعد أن أصبحت المسيحيَّة الدين الرسمي الوحيد للإمبراطوريَّة في عهد الإمبراطور ثيودوسيوس الأوَّل (٣٧٩ – ٣٩٥م) لكنَّ مصر لم تنعم طويلًا بهذا النصر الذي أحرزتهُ المسيحيَّة، إذ ثار الجدل والنزاع مُنذُ أيَّام قُسطنطين الأوَّل بين النصارى حول طبيعة المسيح، وقد تدخَّل قُسطنطين الأوَّل في هذه النزاعات الدينيَّة البحتة وعقد مجمع نيقية سنة ٣٢٥م من أجل ذلك، وناقش هذا المجمع مذهب القس آريوس السَّكندري، الذي أنكر صفة الشبه بين الأب والابن، وعدَّ أنَّ «ابن الله» ليس إلَّا مخلوقًا، فأنكر بذلك أُلوهيَّة المسيح، وتقرَّر بُطلان مذهبه والإعلان عن أنَّ الابن من جوهر الأب نفسه.

واتَّخذ مُعظم الأباطرة الذين جاؤوا بعد قُسطنطين الأوَّل موقفًا عدائيًّا من مُعتقدات النصارى في مصر، ممَّا أدَّى إلى احتدام الجدال والنزاع الديني بين كنيستيّ الإسكندريَّة والقُسطنطينيَّة، وقد بلغ أقصاهُ في مُنتصف القرن الخامس الميلاديّ حينما اختلفت الكنيستان حول طبيعة المسيح فاعتقدت الكنيسة القبطيَّة بأنَّ للمسيح طبيعة إلهيَّة واحدة (مونوفيزيَّة)، وتبنَّت كنيسة القُسطنطينيَّة القول بِثُنائيَّة الطبيعة المُحدَّدة في مجمع خلقدونيَّة، ورأت أنَّ في المسيح طبيعة بشريَّة وطبيعة إلهيَّة، وتبنَّت هذا المذهب ليكون مذهبًا رسميًّا للإمبراطوريَّة، وأنكرت نحلة المونوفيزيتيين، وكفَّروا من قال بأنَّ للمسيح طبيعة واحدة، كما حرموا ديسقوروس بطريرك الإسكندريَّة حرمانًا كنسيًّا لم

يقبل ديسقوروس ولا نصارى مصر ما أقرّهُ مجمع خلقدونيّة وأطلقوا على أنفُسهم إسم الأرثوذكس أي أتباع الديانة التقليديّة الصحيحة، وعُرفت الكنيسة المصريّة مُنذ ذلك الوقت باسم الكنيسة القبطيّة الأرثوذكسيّة، ومال المصريّون إلى الانفصال عن الإمبراطوريّة، فأعلنوا التمرّد، وكانت أولى مظاهره إلغاء كنيسة الإسكندريّة استخدام اللُغة اليونانيّة في طُقوسها وشعائرها واستخدمت بدلًا منها اللُغة القبطيّة وسُرعان ما تطوّرت الأُمور في الإسكندريّة إلى قلاقل دينيّة عنيفة اتخذت صفة الثورات الوطنيّة، تعرّض خلالها المصريّون لِأشد أنواع الاضطهاد ولم تقمعها السُلطات إلّا بعد أن أراقت دماء كثيرة وعندما استولى هرقل على الحُكم، رأى أن يُنقذ البلاد من الخِلاف الديني، وأمل المصريّون بانتهاء عهود الاضطهادات وإراقة الدماء، لكنّ النتيجة جاءت مُخيبة للآمال مرّة أُخرى، إذ عهد هرقل بالرئاسة الدينيّة والسياسيّة في مصر للمُقوقس، وطلب منه أن يحمل المصريين على اعتناق مذهبٍ جديدٍ مُوحّد يُوفّق بين المذهبين الخلقدوني والمونوفيزي، هو المذهب المونوثيلستي، غير أنّ كنيسة مصر رفضت هذا المذهب رفضًا قاطعًا، فاضطرّ المُقوقس للضغط على المصريين وخيّرهم بين أمرين: إمّا الدُخول في مذهب هرقل الجديد وإمّا الاضطهاد وقبل أن يصل الحاكم الجديد إلى الإسكندريّة سنة ٦٣١م هرب البطريرك القبطي بنيامين الأوّل، توقُعًا لِما سيحلُ به وبطائفته كان هذا القرار نذيرًا أزعج المصريين وأفزع رجالُ الدين منهم، خاصّةٍ

أنّهُ كان لِهذا البطريرك مكانة مُحببة بين الأهالي ولجأ المُقوقس إلى البطش والتعذيب،وقاسى المصريّون جميع أنواع الشدائد فيما سُمي بالاضطهاد الأعظم الذي استمرَّ عشرُ سنوات، ممَّا كان لهُ أثرٌ في سُهولة فتح المُسلمين لِمصر حيثُ وقف السُكّان، بشكلٍ عام، على الحياد في الصراع الإسلامي – الرومي على مصر.

الوضع العسكري

ترك الروم في مصر حاميةً عسكريَّةً كبيرة لِحمايتها ودفع الأخطار عنها بوصفها إحدى أهم الولايات وأثراها، ولِأنَّ انسلاخها عن الإمبراطوريَّة من شأنه أن يؤثِّر سلبًا عليها وتشكلت الحامية العسكريَّة الروميَّة في مصر من ثلاث فرق مُوزَّعة على الأقاليم الثلاثة: واحدة في الإسكندريَّة، والاثنتان الأخريان في سائر القطر المصري؛ إلى جانب تسع سرايا: ثلاث في الإسكندريَّة، وثلاث على الحُدود الحبشيَّة في أسوان جنوب مصر، وثلاث في سائر أنحاء القطر المصري فضلًا عن ثلاث وحدات من الفُرسان مُعيَّنة في مناطق الخطر وانقسمت القُوَّات العسكريَّة في مصر إلى عدَّة فرق هي: فرقة الأتباع، ويجري تجنيد أفرادها عن طريق الإلزام أو التطوُّع أو الوراثة لأبناء الجُنود المُسرَّحين؛ جيشُ الحُدود أو الأطراف؛ وهي الفرقة التي تُرابط على الحُدود الغربيَّة والجنوبيَّة، وتقوم بِحراسة الحُدود وتُرابط في القلاع؛ وفرق جيش المُعاهدين وتتألف من الجرمان والمُغامرين الوافدين من

خارج حُدود الإمبراطوريّة،ويتولّى قيادتهم قادة مُعينون من قبل الإمبراطور نفسه وزيد على هذه الفئة الجُند المأجورين الذين استخدمهم بعض كبار المُلّاك للحراسة الخاصّة وقد اشترطت الحُكومة البيزنطيّة أن يتفرّغ الجُنود المُرابطين في مصر للقتال فقط دون غيره، وحرّمت عليهم القيام بالأعمال التجاريّة ولم يكن في بداية الأمر يُسمح للمصريين بالانخراط في الخدمة العسكريّة، ولكن عُدل عن هذه السياسة وسُمح لهم بدُخول الجيش إمّا بالتطوع أو الاقتراع أو الوراثة تراوح عدد عناصر كُل وحدة من وحدات الجيش البيزنطي في مصر بين ٣٠٠ إلى ٥٠٠ جُندي، بينما تراوح عدد الجيش بالكامل بين ٢٥ إلى ٣٠ ألف جُندي، يرأس قيادة كُل وحدةٍ منها قائد يُسمّى التريبون عُرِّب إلى أرطبون، بينما الدوق هو القائد الأعلى للكتائب المُرابطة في إقليمه، وبذلك خضعت الجُيوش في مصر لِقيادة خمسة أدواق وعلى الرُغم من ضخامة الحامية العسكريّة في مصر إلّا أنّها عانت من عُيوبٍ مُتعدِّدة، فقد كان هذا الجيش مُجرّد أداة لِقمع الشعب ومُساعدة الشُرطة في تحصيل الضرائب وإخماد الثورات ضدّ الحُكم الرومي، كما أنّ جُنوده لم يكونوا على تدريبٍ جيّد بسبب مُرابطتهم في مصر على الدوام وعدم خوضهم الحُروب، ونتيجةً لِما كان يتمتع به المُجنّد من امتيازاتٍ في مُقدّمتها الإعفاء من الضرائب، فقد أصبح الإلتحاق بالجُنديّة وسيلةً للهُروب من وطأتها على المُواطنين، فتطوّع الكثير من الفلّاحين وأصحاب المهن ممّا جعل الجيش يتكوّن من عناصر رديئة

ليس لها علاقة بالجُنديّة أضف إلى ذلك فإنّ القيادة العسكريّة لم تكن مُوحدة، الأمر الذي جعل كُل دوق يُواجه ما تتعرض له دوقيّته من أخطار مُنفردًا، وغالبًا ما تقاتل هؤلاء مع بعضهم البعض تحقيقًا لِمصالحهم الشخصيّة، كما أنّ روح الولاء لِبيزنطة كانت مُنعدمة تقريبًا عند المصريين، كما أدّى تغلغل النزاعات الطائفيّة بين صُفوف الجيش إلى عدم ترابطه وتناغمه.

دوافع فتح مصر

يرتبطُ فتحُ مصر بِأهميّتها السياسيّة والاقتصاديّة، لما لديها من خصائص وما تُوفرهُ من إمكاناتٍ على جانبٍ كبيرٍ من الأهميّة ويروي ابن عبد الحكم أنّ عمرو بن العاص أشار على عُمر بن الخطّاب بِفتحها وقال: إنّكَ إن فَتَحْتَهَا كَانَت قُوّةً للمُسْلِمِين وَعَوْنًا لَهُم، وَهِيَ أَكْثَرُ الأَرْضِ أَمْوَالًا وَأَعْجَزَهَا عَنِ القِتَالِ وَالحَربِ والمعروف أنّ عمرو كان قد سافر إلى مصر في الجاهليّة للتجارة، فوقف على معالِمها وعلى أوضاعها الداخليّة، خاصّةً النزاعُ الدينيّ بين البيزنطيين الحاكمين وبين الشعب المصري الذي يُخالفهم في المذهب، وظنّ أنّ المصريين سوف يمتنعون عن مُساعدة الحاميات العسكريّة البيزنطيّة المُنتشرة في مصر إذا هاجمها المُسلمون، ممّا زاده اقتناعًا بما يظُنّهُ ما تناهى إلى أسماع المصريين عن سياسة المُسلمين المُتسامحة في الشّام واجتمع عمرو بن العاص بِعُمر بن الخطّاب في الجابيّة حين جاء إلى الشّام لِيتفقّد أحوالها بعد طاعون عمواس، وعرض عليه فتح مصر وطلب السماح لهُ بالمسير إليها وهُنا تظهر لِأوّل مرّة في المصادر العربيّة والإسلاميّة فكرة فتح مصر وكأنّها فكرةٌ طارئة عنّت لِعمرو بن العاص الذي كان يسعى للحُصول على ميدانٍ جديدٍ يُظهرُ فيه نشاطه، وحسّنها للخليفةُ عُمر وتُجري بعض المصادر أنّ فكرة فتح مصر تعود إلى عُمر بن الخطّاب نفسه الذي أمر عمرو بالمسير إليها

والواقع أنَّ فتح مصر أضحى ضرورةً بعد فتح الشّام وقد أثارت هذه البلاد إهتمام المُسلمين الجدِّي بعد أن وقفوا على أوضاعها السياسيَّة والاقتصاديَّة والدينيَّة المُتردية، ذلك أنَّ تطلُّعات عمرو بن العاص ومن خِلالها عُمر بن الخطّاب تكمن في فتح مصر وضمِّها إلى الدولة الإسلاميَّة من خِلال هذا الواقع ويُمكنُ حصر الدوافع الإسلاميَّة لِفتح مصر في ثلاث نقاط:

الدافع الديني: وهو ضرورة نشر الإسلام في مصر وأفريقيا، وقد سبق للمُسلمين في عهد النبي مُحمَّد دعوة المُقوقس إلى الإسلام سلميًّا، وعاود أبو بكر الصديّق دعوته بعد أن تولّى الخِلافة، فأرسل إليه الصحابي حاطب بن أبي بلتعة مرَّة أُخرى، وفي عهد عُمر بن الخطّاب أرسل إليه كعب بن عُدي بن حنظلة التنوخي، فما كان من المُقوقس إلّا أن اكتفى بالرد الحسن وكانت الدعوة إلى الإسلام في رُبوع مصر مُستحيلة دون المُواجهة مع الروم إلى جانب هذا، تُمثِّلُ مصر مكانةً كبيرةً لدى المُسلمين بسبب ذكرها عدَّة مرّات في القُرآن، وارتباطها بِأحداثٍ محوريَّة وبأشخاصٍ يجُلُّهم المُسلمون، وفي مُقدمتهم النبيين يُوسُف وموسى، وهاجر أُم النبيّ إسماعيل، وماريَّة القبطيَّة زوجة الرسول، هذا إلى جانب تبشير النبيّ مُحمَّد للمُسلمين بفتحها وتوصيته بأهلها خيرًا، فكان من شأن كُل ذلك جعل المُسلمين حريصين على ضمِّها إلى دولة الخِلافة التليدة.

الدافع العسكري: تُمثِّلُ مصر امتدادًا طبيعيًّا للشّام التي فتح المُسلمون أغلبها، وقد انسحب إليها الأرطبون صاحب بيت المقدس لإعادة تنظيم صُفوفه واسترجاع الشّام مرّة أخرى، الأمر الذي جعل المسلمين يُسارعون في دُخول مصر، وأيضًا كان من شأن الاستيلاء على ما في مصر من ثُغورٍ وسُفن أن يُمكِّن المُسلمين من إخضاع مدن الشّام الشماليّة الواقعة على البحر المُتوسِّط، ففتح مصر ضرورة حربيّة مُلحّة تكميلًا لِفتح الشّام، وأيضًا خوفًا من أن يُهاجم البيزنطيون دار الخلافة في الحجاز عن طريق البحر الأحمر، وأيضًا حاول البيزنطيّون استرداد الشّام من المُسلمين مرّة أُخرى وعرقلة توجههم جنوبًا فهاجموهم من شمال الشّام فشعر المُسلمون أنهم مُحاصرون بين قُوّات بيزنطة في آسيا الصُغرى وقُوّاتهم في مصر. وأيضًا قلّة التحصينات بِمصر جعل مُهمّة الفتح سهلة وكان أغلب المُشاركين في الفتح من قبيلتيّ غافق وعك اليمنيتين وكان لديهم مهارة في قتال الحُصون السّاحليّة، واشتركوا مع عمرو بن العاص في فتح الحُصون بالشّام، كما كانوا على دراية ببناء المُدن والزراعة.

الدافع السياسي والاقتصادي: تجمّع لدى المُسلمين معلوماتٌ تُفيد بأنّ الأوضاع الاقتصاديّة في مصر كانت مُتردية وكانت ثروات البلاد تذهب إلى القُسطنطينيّة، وأيضًا أوضاع المصريين الذين كانوا يعانون من الاضطهاد الديني المذهبي من قبل البيزنطيين، وأدركوا أنّ ضم مصر إلى دولة الإسلام سيُنعش اقتصاد المُسلمين ويُضعف

البيزنطيين، لا سيّما مع ازدياد الضغط الاقتصادي على المُجتمع الإسلامي في بلاد العرب نتيجة حركة الفُتوح الواسعة، لِذلك كان فتح مصر ضرورة اقتصاديّة مُلحّة.

وكان عُمر بن الخطّاب يتخوّف دائماً من مُتابعة الزحف قبل أن يُرسّخ المُسلمون أقدامهم في المناطق التي فتحوها في العراق والشّام، خاصّةً بعد عام الرمادة وطاعون عمواس سنة ١٨هـ - ٦٣٩م، حيثُ قضى عشرات الأُلوف من الجُوع والوباء ثُمّ اقتنع بِفكرة عمرو بن العاص بِضرورة الزحف من الشّام إلى مصر، كما اقتنع بعدها بِقليل بِضرورة الزحف من العراق إلى فارس. فعهد إليه بِقيادة العمليّة وطلب منهُ أن يجعل ذلك سرًّا وأن يسير بِجُنده سيرًا هنيًّا وهكذا سار عمرو بن العاص إلى مصر مُخترقًا صحراء سيناء ومُتخذًا الطريق الساحليّ، ومع ذلك بقي عُمر بن الخطّاب مُترددًا، حتّى يبدو أنّهُ عدل عن موفقته فأرسل كتابًا إلى عمرو بن العاص وهو بِرفح فلم يستلمهُ ويقرأهُ إلّا بعد أن دخل حُدود مصر ويعتقد البعض أنّ تلك كانت حيلةً بارعةً جعلته يزحف نحو مصر دون أن يُخالف أمر الخليفة وقيل أنّ عمرو بن العاص سار إلى مصر من تلقاء نفسه، ثُمّ استأذن عُمر بن الخطّاب، وقيل لم يستأذنه، فغضب عليه وأرسل إليه الكتاب المذكور، فلم يقرأه إلّا بعد دُخوله مصر، كما قيل أنّ الكتاب وافاه وهو بالعريش داخل حُدود مصر.

الباب الثالث
الفتح الاسلامى للشام

أوضاع الشّام عشيّة الفُتوح الإسلاميّة

قبعت الشّام تحت ظل الحُكم الروماني والبيزنطي ما يقرب من سبعة قُرون قبل أن تسقط بين المُسلمين،وتخلل ذلك فترة قصيرة سقطت خِلالها في يد الفُرس الساسانيين،قبل أن يستعيدُها البيزنطيّون بِقيادة الإمبراطور هرقل دام الاحتلال الفارسيّ للشّام حوالي ١٧ سنة، وفي سنة ٦٢٦م حاصر الفُرس القُسطنطينيّة نفسها وهددوها بالسُقوط، لكنّ هرقل كان قد أعدّ خِلال هذا الحِصار خطّةً عسكريّةً لاجتياح فارس انطلاقًا من شمال القوقاز بمُعاونة الأرمن والكرجيّون والخزر، فاستولى أولًا على مدينتيّ تفليس ودوين في أرمينية، ودخل مدينة جانزاك عاصمة أردشير الأوّل، وأشعل النّار في معبد زرادشت المجوسي انتقاماً لما أنزلهُ الفُرس بكنيسة القيامة من خراب ودمار عندما اجتاحوا الشّام، وفرّ الشاه كسرى الثاني من المدينة، لكنّ هرقل اضطرّ إلى إيقاف حملته والعودة إلى القُسطنطينيّة بعد أن تعرّضت لِهُجوم الآڤار حُلفاء الفُرس من الغرب، فاستغلّ كسرى الفُرصة وهاجم العاصمة البيزنطيّة من الشرق، غير أنّ فشل هُجوم الآڤار حملهُ على الانسحاب، وارتدّ إلى الشّام أتاحت هذه الظُروف الفُرصة لِهرقل لِيستكمل خِطّته الهُجوميّة التي كان قد أعدّها، فشرع في خريف سنة ٦٢٧م فى الزحف نحو أراضي فارس، وأمام نينوى نشبت المعركة الحاسمة التي قرّرت مصير النزاع بين فارس وبيزنطية، فأحرز هرقل

نصراً واضحاً، وحلّت بالجيش الفارسي هزيمة ساحقة، ثُمَّ واصل زحفه باتجاه المدائن فاستولى عليها سنة ٦٢٨م، وكان كسرى الثاني قد هرب منها عند اقتراب الجيش البيزنطي وما حدث آنذاك من انقلابٍ في فارس، إذ جرى عزل كسرى الثاني وقتله وتولية ابنه قباذ الثاني شيرويه العرش؛ فجعل من استمرار الحرب أمرًا لا داعي له، فعقدت الدولتان اتفاقيّة صُلح استردّت بيزنطية بِمُوجبها ما كان لها من أملاكٍ في أرمينية وجزيرة الفُرات والشّام تركت الحرب البيزنطيّة الفارسيّة الإمبراطوريتين مُنهكتين، فلم يتمكّن هرقل من استعادة التوازن ، وقد أدّى توالي الأزمات الدّاخليّة والخارجيّة السريعة إلى عدم الاستقرار والتناقُضات والتقلّب، وهي الأُمور التي فرضت على هرقل أن يظل في حالةٍ مُضطربة وبِتنامي القُوّة الإسلاميّة، شعرت القبائل العربيّة المُوالية لِبيزنطة في جنوب الشّام بِحُدوث تغيُّرٍ دينيٍ وسياسيٍ في الحجاز، على مقربةٍ منها، ورأت في هذا التطوُّر خطرًا يُهددُ كياتها ، لذلك وثّقت علاقتها ببيزنطة ورأى هرقل في هذا التنامي تدخُلًا في شئونه واختراقًا لِسيادته بعد انتصاره الكبير على الفُرس، ومع ذلك فقد عدّهُ مُجرّد اندفاعٍ قبليٍ أو مُحاولة إمارةٍ عربيّةٍ ناشئة توسيع رُقعتها الجُغرافيّة، من ذلك النوع الذي اعتاد بدو الصحراء أن يشُنّوه بين وقتٍ وآخر على أطراف الإمبراطوريّة ، ولا تلبث أن تتوقّف تلقائيًا عندما يتصدّى لها خُرّاسُ الحُدود من الجيش أو القبائل المُوالية .

إداريًّا:أنشأ الرومان ولاية فلسطين السوريّة التي جمعت مناطق اليهوديّة والسامرة والجليل، وقسّموها إلى أبرشيّتين وقامت على أطرافها مملكة الغساسنة العربيّة الحليفة للروم وفي الفترة اللاحقة على سنة ٤١٥م، قسّم الروم البيزنطيون ولاية فلسطين السوريّة إلى قسمين: سوريا الأولى وعاصمتُها أنطاكية وسوريا الثانية وفي سنة ٥٢٨م أوجد الإمبراطور جُستنيان مُحافظة ثيودوريّاس وكان الروم قد أنشأوا سنة ٤٠٠م مُحافظتيّ فينيقيا الساحليّة وعاصمتها صور وفينيقيا اللُبنانيّة وعاصمتها حِمص وأضحت الحاجة ماسّة لِقيام حركة إصلاح داخليّة، فالتفت هرقل في بادئ الأمر إلى إعادة تنظيم أقاليم الدولة بما أدخلهُ من نظام الأجناد، فيتولّى حُكمُ كُلٍّ منها قائدٌ عسكريٌّ وبذلك اتخذت التنظيمات الإداريّة الجديدة طابعًا عسكريًّا خالصًا ويتمثّل هذا النظام في استقرار الجُند في أقاليم آسيا الصُغرى والشّام، ولِذا جرى إطلاق لفظ أجناد على الأقاليم العسكريّة التي نشأت بعد ذلك، وأضحى هذا اللفظ الذي كان يُطلقُ على لواءٍ من الجُند، يُطلقُ على الأرض التي تُشغلها القوّات العسكريّة، وتقرّر منح الجُند مساحاتٍ من الأرض كحلٍّ للاضطراب الماليّ بِشرط أن تكون الخدمة العسكريّة مُقابل ذلك وراثيّة وحلّ نظامُ الأجناد محل نظام حُكومات الأقاليم الذي فقد أهميّته، وكان يُعدُّ من أهم مظاهر الإدارة البيزنطيّة فتغلّبت الصفة العسكريّة على إدارة الإمبراطوريّة، وأُعيد النظر فيتنظيم القُوّات المُسلّحة وأتاح هذا التغيير قلب المُعادلة العسكريّة لِصالح الروم أمام

الفُرس غير أنّ هذا النظام الجديد لم يترسّخ في الشّام بِفعل قِصر المُدّة بين إقراره ووُقوع هذه البِلاد بيد المُسلمين، وبالتالي لم يُتح لِهذا الإقليم أن يستفيد من إيجابيّاته، وفوجئ البيزنطيّون بالزحف الإسلامي وهُم في حالة انتقالٍ من النظام القديم إلى النظام الجديد .

اجتماعيًّا

كان عامّة الشوام قبل الفتح الإسلامي يشعُرون بالظُلم بسبب النظام المالي الذي أثقل كاهلهم بالضرائب الباهظة وكانت الضرائب المفروضة على المُدن وقُرى الشّام على نوعين: ضرائب نظاميّة، وضرائب طارئة لِمُواجهة أوضاع خاصّة ويبدو أنّ هذا النظام الضريبي لم يعد يفي بِسد حاجات الإمبراطوريّة بسبب كثرة النفقات العسكريّة والإداريّة مما أثار قلاقل واضطرابات أضعفت فى النهاية الامبراطورية.

دينيًّا

دانت الغالبيّة العُظمى من أهالي الشّام قبل الفتح الإسلامي بالمسيحيّة، وكان هُناك قسمٌ صغير يدينُ باليهوديّة وقد انقسم النصارى الشوام إلى طوائف مُختلفة، واستقرّ الرأي في النهاية على الإيمان باتحاد الطبيعتين، الإلهيّة والبشريّة،في شخص المسيح، اتحادًا غير قابل للانفصام وقد حصلت في الشّام مُنذُ ذلك الوقت قلاقل دينيّة

اتخذت صفة الثورات الوطنيّة العنيفة عوض الفتن الطائفيّة بشكلٍ مُباشرٍ، بدليل استمرار تحالُف القبائل العربيّة النصرانيّة، المُخالفة للعقيدة الرسميّة للإمبراطوريّة ، مع بيزنطية ومن المعروف أنّ النصارى الشوام انقسموا إلى سُريانٍ أو يعاقبة، وملكيّون أو روم ويُشيرُ المُؤرخون إلى أنّ المذهب اليعقوبي انتشر بين القبائل العربيّة مثل إياد وربيعة وقُضاعة أمّا القائلون بالمذهب الخلقدوني (الملكيّون) فكانوا يعيشون في المُدن التي اصطبغت بالثقافة الهلينيّة، مثل أنطاكية وسلوقية واللاذقيّة وبعلبك وبيروت وقيصريّة وبيت المقدس وكانت نسبةٌ عالية من اليعاقبة مُستاءة من الحُكم المركزي وكان من الطبيعيّ أن تُولّد تلك الانقسامات اللاهوتيّة، والاضطهادات الدينيّة، نفورًا وكراهيّة وعداء في الشّام، حيال الروم في بيزنطية، كما كانت عليه الحالة النفسيّة في العراق تجاه الساسانيين الفُرس، الذين لم يمتنعوا عن اللُجوء إلى العُنف وسفك الدماء لإخضاع المسيحيين، من نساطرة ويعقوبيين، وسياستهم المجوسيّة كذلك فقد عانى المسيحيّون الشوام الأمرّين بعد سيطرة الفُرس على البِلاد،إذ تعاون هؤلاء مع اليهود لاقتحام بيت المقدس بعد ثلاثة شُهورٍ من الحِصار وفتكوا بما بين ٥٧,٠٠٠ و٦٦,٥٠٠ مسيحيّ، وسبوا حوالي ٣٥,٠٠٠ آخرون بما فيهم بطريرك المدينة زكريًا،كما أُحرقت الكثير من الكنائس بما فيها كنيسة القيامة، وتمّ الاستيلاء على عددٍ من الآثار المُقدّسة بما فيها صليب الصلبوت والحربة المُقدّسة والإسفنجة المُقدّسة، ونُقلت كُلّها

إلى المدائن عاصمة فارس وقد ساهم اليهود في مذابح المسيحيين، وقتلوا الكثير منهم، لذا شاع كره اليهود في الشّام بعد أن استعادها الروم، وقبل أن يفتحها المُسلمون.

عسكريًّا

رجعُ الفضل للإمبراطور موريس والقائد بلزاريوس في وضع أساس الجيش البيزنطي، وزاد الإمبراطور هرقل من كفاءته وقُدرته القتاليّة، وانتصر به على الفُرس والصقالِبة والآڤار وأعاد الإمبراطور موريس تنظيم الهيكل العام للجيش، ووضع أُسس التجنيد، ورفعَ عدد الوحدة القتاليّة إلى أربعمائة، وجعلها الوحدة الأساسيّة للجيش، ثُمّ جمع عددًا من هذه الوحدات في مجموعةٍ واحدة يتراوح عددُها بين ستة وثمانية آلاف، وسمّاها الفرقة وزودالقوات بمعدات جيدة وأحسن تسليح القوات وكان الجيش ينقسم إلى قسمين فرقة المُشاة الثقيلة وفرقة المُشاة الخفيفة.

ويتناسبُ تنظيم الوحدات العسكريّة مع ما يُنفذونهُ أثناء القِتال، وهو أُسلوبٌ مرنٌ يتغيّرُ من معركةٍ إلى أُخرى، ويُحدّدُ من قِبل القادة بالاستناد إلى أُسلوبِ العدوِ القتاليِ وكان هُناك سُلّمٌ لِرُتب الضُبّاط أمّا المُصطلحات الفنيّة المُستخدمة في الجيش البيزنطي فكانت خليطًا من الكلمات اللاتينيّة واليونانيّة وعرِفت بيزنطة نظام الكتائب في التكتيك القتاليّ القائم على سلاحيّ الفُرسان والمُشاة، بعد أن أخذتهُ عن

اليونان، إلّا أنّهُ في العصر الإسلاميّ الأوّل، كانت جُيوشُ بيزنطة تُقسم إلى فرق تُسمّى كراديس يضمُّ كُلّ منها زهاء سُتمائة جُندي والمعروف أنّ عدد الجيش البيزنطي النظامي في الشّام لم يكن كبير الحجم، ولم يكن بإمكان الإدارة العسكريّة البيزنطيّة توفير أكثر من عشرين ألف جُندي للدِفاع عن البِلاد، في ظل الأخطار التي تتعرّض لها ، وتبنّى هرقل النظريّة القائلة إنّ خيرُ وسيلةٍ لِقتال العرب هي استخدامُ عربٍ آخرين إزائهم، لذلك كان من الضروريّ لِبيزنطة أن تحتفظ بِصداقة بعض القبائل، وتنويع صِلاتها بالعرب وكانت الإمبراطوريّة البيزنطيّة تعمد إلى تجنيد المُرتزقة لِلقتال في صُفوف جُيوشها عند نُشوب أيّ حرب، لكنّ الانهاك الاقتصادي الذي حلّ بها بعد الحرب الطويلة مع الفُرس جعلها عاجزة عن تجنيدهم ما أن ظهر الخطر الإسلامي، واستعاض هرقل عن المُرتزقة بالجُند الفلّاحون أهالي الأجناد التي قام بإنشائها، فغدا هؤلاء الذين حصلوا على إقطاعاتٍ مُقابل الالتزام بالخدمة العسكريّة والنازلون في الإقطاعة،عُنصرًا ثابتًا في قُوّات الجيش البيزنطي، وأمدّتهم إقطاعاتهم بالوسائل الاقتصاديّة التي تكفل لهم سُبل العيش، فكان كُلّ منهم يخرج إلى الحرب بِسلاحهِ وفرسهِ.

بعد وفاة الرسول، بُويع أبو بكر الصدّيق بالخِلافة ليتولّى شئون المُجتمع الإسلامي الجديد الذي كوّنهُ الرسول خِلال حياته، وكان أوّل عمل قام به أبو بكر بعد مُبايعته هو التصدّي لأهل الردّة ومُدعي النبوّة الذين انتشرت ظاهرتهم واشتعلت في مُختلف أنحاء شبه الجزيرة

لِأهدافٍ مُختلفة، ولكن قبل أن يحوِّل نظره شطر الأنحاء التي أعلن أهلها ارتدادهم عن الإسلام، قرر أبو بكر ، وهي إرسال سريَّة أسامة بن زيد إلى مشارف الشّام للإغارة على القبائل الشاميَّة على الطريق التجاري بين مكّة وغزّة، ولمُحاربة الروم وقد أشار المُسلمون وفي مُقدمتهم عُمر بن الخطّاب على أبي بكرٍ ألّا يُرسل حملة أسامة بن زيد حتى لا تضعف قوَّة المدينة المنوَّرة حال هاجتمها قبائل الأعراب المُرتدَّة، ولحاجته إليها في قتالهم وغزوهم، لكن أبا بكر أبى أن يُخالف وصيَّة النبي، وكان جوابه إلى الصحابة صريحًا، فقال: وَاللَّهِ لَا أَحُلُّ عُقْدَةً عَقَدَهَا رَسُولُ اللَّهِ ، وَلَوْ أَنَّ الطَّيْرَ تَخَطَّفُنَا، وَالسِّبَاعَ مِنْ حَوْلِ الْمَدِينَةِ، وَلَوْ أَنَّ الْكِلَابَ جَرَّتْ بِأَرْجُلِ أُمَّهَاتِ الْمُؤْمِنِينَ، لَأُجَهِّزَنَّ جَيْشَ أُسَامَةَ وترتب على انتصار المُسلمين على أهل الرِّدَّة عدَّة نتائج مُهمَّة منها إعطاء المُسلمين ثقة بالنفس وبِالنظام الذي اختاروه وبِالقُدرة على الانتصار، وهي ثِقةٌ هامَّةٌ وضروريَّةٌ في مُواجهة قِوى كُبرى تتمتّع بِقُدراتٍ ماديَّةٍ وكثرةٍ عدديَّةٍ، إلى جانب الإيمان بالهدف كما شكّلت فُرصةً للمُسلمين كي يتدربون تدريباً عسكرياً عملياً على مُستوى الجُيوش الكبيرة، ابتداءاً من الحشد والتعبئة العامَّة إلى التحرُّكات والسير والالتحام، إلى أعمال الدوريَّات والحِصار والجاسوسيَّة والتدابير اللوجستيَّة ويُمكنُ وصف هذه الحُروب بِمثابة جسر عبر المُسلمون العرب عليه إلى خارج شبه الجزيرة العربيَّة بِهدف الفتح.

الفَتْحُ الإسْلَامِيُّ للشَّام

سلسلةٌ من المعارك العسكريَّة وقعت بين سنتيّ ١٢هـ ا ٦٣٣م و١٩هـ ا ٦٤٠م بهدف سيطرة دولة الخِلافة الرَّاشدة على الشّام أو ولاية سوريا الروميَّة، وقد تولّى قيادة تلك الحملات كُلٍ من خالد بن الوليد وأبو عُبيدة بن الجرَّاح ويزيد بن أبي سُفيان بشكلٍ رئيسيّ، وقد أنتهت بانتصار المُسلمين،وخروج الشّام من سيطرة الإمبراطوريَّة البيزنطيَّة ودُخولها حظيرة دولة الإسلام وقد بدأت معارك فُتوح الشّام في خلافة أبي بكر بعد نهاية حُروبُ الرِّدَّة، وكانت قد اندلعت مُناوشاتٌ بين الدَّولة الإسلاميَّة والإمبراطوريَّة البيزنطيَّة مُنذُ سنة ٦٢٩م في غزوة مؤتة، غير أنَّ المعارك الحاسمة وقعت في خلافة عُمر بن الخطّاب، وكان أهمها معركة اليرموك التي هُزم فيها الجيشُ البيزنطيُّ هزيمةً ساحقة حدَّدت مصير البلاد وقد فُتحت العديد من المُدن الشّاميَّة سلماً دون قتال، والقسمُ الثاني من المُدن فُتحت سلماً، إنما بعد حصارٍ طويلٍ، لا سيَّما في المواقع المهمَّة حيث وجدت حاميات روميَّة كبيرة، ومنها: دمشق، والرقّة، وحمص، وبيت المقدس؛ أما القسم الثالث من المُدن فقد فُتح حرباً، ومنها رأس العين، وحامية غزة، وقرقيسيا، في حين استعصت جرجومة في الشمال حتى عهد عبد الملك بن مروان الأُموي وجرت معارك فتح الشّام تزامُنًا مع معارك فتح العراق وفارس، وقد وجد الكثير من المؤرخين أنَّ سُقوط

الشّام السريع نوعاً ما، يعود إلى عاملين: أولهما إنهاك الجيش البيزنطي بعد الحرب الطويلة مع الفُرس، وثانيهما سخط قطاعٌ واسعٌ من الشعب على السياسة البيزنطيّة، وهو ما دفع بعض القبائل والجهات المحليّة لِمُساعدة المُسلمين مُساعدةً مُباشرة أقبل أغلب الشّوام على اعتناق الإسلام بعد سنواتٍ من الفتح،واستقرّت العديد من القبائل العربيّة المُجاهدة في البلاد الجديدة واختلطت بأهلها، ومع مُرور الوقت استعربت الغالبيّة العُظمى من أهالي الشّام وأصبحت تُشكّلُ جُزءًا مُهمًا من الأُمّة الإسلاميّة.

تجاور العربُ والرُّومُ في شمال شبه الجزيرة العربيّة وفي الشّام طيلة قُرون، وقامت عدّة ممالك عربيّة مُنذُ العصر الرومانيّ في تلك المنطقة غالبًا ماخضعت للهيمنة الرومانيّة،ولمّا اعترفت الإمبراطوريّة بالمسيحيّة دينًا رسميًّا، كان العربُ الشوام في مُقدّمة الشُعوب الرومانيّة التي تنصّرت، وقد بدأ تنصيرهم بشكلٍ مُكثّفٍ في القرن الرابع الميلاديّ بعد أن قويت المسيحيّة في الشّام على أثر الحُريّة التي منحها الإمبراطور قسطنطين الأوّل وتواصل تنصُّرُ عرب الشّام في القرن الخامس وفي أواخر القرن السادس كانت المسيحيّة غالبة على عرب الشّام وتتفقُ مُختلف المصادر على أنّ قبائل قضاعة كانت من أوّل القبائل التي قدمت الشّام واستوطنتها واعتنقت المسيحيّة، فيقول المسعودي: وكَانَت قَضَاعَةُ أَوّلَ مَن نَزَلَ الشّامِ وَانضَمّوا إِلَى مُلُوكِ الرُّومِ فَمَلَكُوهُمُ بَعْدَ أَن دَخَلُوا فِي النّصْرَانِيّةِ عَلَى

مَن حَوَى الشّامَ مِنَ العَرَبِ كذلك هاجرت قبيلة الضجاعم السليحيّة إلى أطراف الشّام زمن الروم وملكوا المنطقة المُمتدّة من فلسطين إلى قنسرين قبل وُصول الغساسنة وفي شمال الشّام استقرّت قبائل تنّوخ قادمة من العراق هربًا من ضغوط الفُرس خِلال القرن الثالث الميلاديّ واستقرّت في مناطق قنسرين وحلب ويروي الخُبراء أن هُناك قبائل أُخرى نزحت إلى الشّام من ذُريّة كهلان وطيء وعاملة ولخم وجذام لكنّ أبرز قبائل الشّام العربيّة التي تعود للعصر البيزنطي وأبعدها أثرًا هي قبيلة الغساسنة ويرجعُ أصلُ الغساسنة إلى أزد اليمن، هاجروا من جنوب شبه الجزيرة العربيّة إلى بادية الشّام قبل أو بعد حادثة سيل العرم، بفعل تصدُّع سد مأرب أو تهدُمه.

وقد سبَّب ذلك تدهور نُظم الزراعة والرّي، ونقص الإنتاج وقد وفد الغساسنة على الشّام أواخر القرن الخامس الميلاديّ، عندما خلت البادية بين حوران والفُرات وعلى امتداد خمسُمائة كيلومتر من أي وُجودٍ عسكريّ بيزنطيّ وتخلّى الرُومُ عن الحزام المُمتد بين دمشق وتدمر لِتتراجع حُدود الإمبراطوريّة إلى مُثلّث الرِقّة سورة الرّصافة ولمّا وصل بنو غسّان إلى الشّام أقاموا في ديار الضجاعمة السليحيّون مُقابل الجزية، وكان هؤلاء وُكلاء للبيزنطيين يجبون لهم الأموال من القبائل التي تنزلُ بساحتهم، وكانت إمارتهم تمُرُّ بدور الضعف والشيخوخة، ويبدو أنّ غسّان شعرت بِضُعف سليح، فتوقفت عن دفع الجزية،ونشبت بين الطرفين حربٌ ضروس انتصرت غسّان وأبادت

سليح وحلّت مكانها في المكان والوظيفة، وعيّن القيصر الرومي بني غسّان وُكلاء للبيزنطيين مكان سليح، وكتب بينهُ وبينهم كتابًا فيما يُشبه الحلف العسكري سنة ٥٠٢م.

وهكذا قامت مملكة الغساسنة التي تُدينُ بولائها للروم وعمِل الروم على مدِّ سُلطانهم إلى العربيّة الجنوبيّة والتحالف مع عرب تلك الناحية من شبه الجزيرة كذلك الأمر، ويرجعُ التفاعل بين الروم وعرب الجنوب إلى القرن الأوّل للميلاد على الأقل، عندما تطلّعت روما صوب مملكة سبأ ومُدنُها التجاريّة، فتحالفت مع الأحباش لِتحقيق مصالحها في اليمن بعد أن اعترض اليمنيون السُفن الرومانيّة، واستولت على بعض الأماكن في اليمن في عهد الإمبراطور كلوديوس، وتمكّنت خِلال القرن الثالث الميلادي من مد نُفوذها الفعليّ إلى تلك الناحية من شبه الجزيرة عبر حليفتها مملكة أكسوم الحبشيّة التي أعلنت المسيحيّة دينًا رسميًّا لها وعبر المُبشرين الشّوام من عربٍ وسُريان الذين عملوا على نشر النصرانيّة في اليمن وقد تلقّى الأحباش دعم وتشجيع من الإمبراطور البيزنطي فلاڤيوس يوليوس قسطنس الذي كان يهدف إلى نشر الدين المسيحيّ في بلاد العرب، فانقضوا على اليمن وسيطروا عليها سيطرةً تامّةً سنة ٣٤٥م، وقد استمرّت سيطرتهم أقل من أربعين سنة بقليل وكان بعضُ النُبلاء ومُلوك اليمين يتذمرون من تنامي النُفوذ الحبشي والرومي، فقاموا بُمحاربة المسيحيّة السياسيّة عبر فكرٍ دينيٍّ سياسيٍّ آخر، فجلب الملك أبو كرب أسعد الديانة

اليهوديَّة من يثرب ودعا اليمنيين إلى اعتناقها ففعلوا، وهدموا العديد من الهياكل والمعابد المُكرَّسة للآلهة الوثنيَّة وكان من نتيجة هذا الأمر أن أصبحت اليمن أرضًا خصبةً لامتداد النُفوذ الفارسي المُناوئ لِلبيزنطيين إليها، وجرت فيها عدَّة نزاعات للسيطرة على أجهزة المملكة الحِميريَّة، فدعم الفُرس اليهود وأتباع المذاهب المسيحيَّة المُناهضة للبيزنطيين مثل النُسطوريَّة، فتمكنوا بدايةً من السيطرة على البلاد، ثُمَّ انحسر نُفوذهم أمام النُفوذ الرُومي، وانتشرت المسيحيَّة في طول البلاد وعرضها، واستحال النصارى هم سادة اليمن الحقيقيين لكنَّ هؤلاء تعرَّضوا للاضطهاد الشديد في عهد الملك ذو نوَّاس يُوسُف أسأر الحِميري، الذي اعتنق اليهوديَّة كي يُحارب بها المسيحيَّة السياسيَّة، فجمع أهل نجران وخيَّرهم بين العودة إلى الوثنيَّة أو الموت حرقًا، ففضَّل مُعظمهم الموت في سبيل الإيمان، فحفر ذو نوَّاس أخاديد في الأرض وألقى المسيحيين فيها مع أناجيلهم وأضرم فيهم النار أحياء عند ذلك ثارت حفيظة بيزنطية وعقدت العزم على عزل ذي نوَّاس عن حُلفائه الفُرس، فتمَّ إبرام صُلح بين الروم والفُرس تخلَّت فارس بموجبه عن مصالحها في اليمن.

ساهم عربُ الشمال في القِتال إلى جانب الرُوم دفاعًا عن الإمبراطوريَّة البيزنطيَّة، ففي أواخر صيف سنة ٥٠٢م هاجم قباذ شاه فارس والنُعمان بن الأسود ملك الحيرة الجزيرة الفُراتيَّة وشمال الشَّام، فحاصر قباذ آمُد وتوغَّل النُعمان إلى حرَّان وتوجَّه صوب الرَّها،

واضطرّت الجُيوش البيزنطيّة نتيجة الضغط العسكري إلى الانسحاب من أمام الجُيوش الفارسيّة والعربيّة، وسقطت آمُد في شهر يناير سنة ٥٠٣م، وافتدت نفسها بالمال لم يقف الحليفان البيزنطي والغسّاني موقف المُتفرّج تجاه هذا الهُجوم الفارسي – الحيري.

ففي صيف تلك السنة ردّ الغساسنة عرب الحيرة المناذرة عن منطقة الخابور، وواصلوا هُجومهم حتّى وصلوا إلى الحيرة نفسها، وواصلوا القتال مع المناذرة في الوقت الذي كان فيه الروم والفُرس يتباحثان في شُروط الصُلح، التي أُجبر الفُرس على قُبولها وفي سنة ٥٢٨م، أي خِلال عهد الملك الغسّاني الحارث بن جُبلة، نشبت حربٌ بين الغساسنة والمناذرة بقيادة الملك المُنذر بن ماء السماء كان من نتيجتها أن هُزم هؤلاء وارتدوا على أعقابهم،وعلى الرُغم من التقدير الكبير الذي حظي به الحارث والغساسنة عند الإمبراطور البيزنطي، إلّا أنّ حاجزًا استمرّ قائماً بينهم، ولعلّ السبب الأبرز وراء ذلك هو اتباع الغساسنة المذهب المونوفيزيتي، أي مذهب الطبيعة الواحدة للمسيح المُناهض لِمذهب الدولة الرسمي، ورفضهم هذا الأخير رُغم مُحاولات فرضه على كافّة أنحاء الشّام وفي سنة ٥٧٠م.

خلف المُنذر الأكبر بن الحارث أباه واستهلّ حُكمه بالحرب مع ملك الحيرة قابوس فانتصر عليه يوم ٢٠ مايو ٥٧٨م ويبدو أنّ الروم كانوا يُعارضون هذا التّوجّه العسكريّ في المنطقة ويعملون على لجم العرب تنفيذًا لِبُنود المُعاهدة المعقودة مع الفُرس في سنة ٥٦١م، كما

أنّهم لم يستحسنوا تطرُّفه في تأييد المذهب اليعقوبي، فتوقفوا عن دفع المال الذي كانوا يُقدمونهُ للغساسنة مما سبّب قطيعة بين المُنذر والإمبراطور جستين الثاني وارتفعت حدّة التوتر بين الغساسنة والروم في هذه الفترة، إذ دبّر الإمبراطور مُؤامرةً لِاغتيال المُنذر، فعلِم الأخير بالأمر وهرب إلى البادية، واضطرّ الروم إلى استرضائه مرّة أُخرى بعد أن هاجم المناذرة الشّام أثناء غيابه، كي يعود ويُدافع عن بلاده وقد حاول المُنذر تصحيح العلاقات مع البيزنطيين، فزار القُسطنطينيّة في ٨ فبراير سنة ٥٨٠م حيثُ استُقبل بحفاوة، وسعى للحُصُول على العفو عن أصحاب مذهبه ، وعمل على توطيد السلام مع البيزنطيين، لكنّهُ واجه مُعارضةً شديدة من رجال الدين وبعض كِبار رجال الدولة المُتزمتين، الذين أخذوا يُحرِّضون الإمبراطور عليه واتهموه بالتواطؤ مع الفُرس فتقرّر القبض عليه انتقاماً ويبدو أنّ المُنذر أراد أن يُثبت حُسن نيّته تجاه حُلفائه البيزنطيين، فهاجم الحيرة دون التنسيق معهم، فعدّ القيصر ذلك تحدياً له ورغبةً من الغساسنة فى الخُروج على طاعته، فقُبض على المُنذر ونُفي إلى صقلية وبقي حتّى وفاته، وأمر بقطع المُساعدة السنويّة التي كان البيزنطيّون يُقدمونها إلى الغساسنة.

كانت الشّام في مُقدِّمة اهتمامات الخليفة الهادفة إلى التوسُّع عبر المناطق المألوفة للعرب جُغرافيًّا، وكانت هذه البِلاد أكثرُها التصاقًا بِذاكرة العربيّ التاجر، حيثُ سعى إليها في رحلة الصيف أو سمع الكثير عنها من رجال القوافل ورُواة الأخبار وكانت رؤية الرسول

التوسُّعيَّة في تلك المنطقة حاضرة في ذهن أبي بكر الحريص على انتهاج السياسة النبويَّة مُنذُ بداية عهده وإذا كانت ملامح هذه السياسة قد ظهرت أولًا في العراق، فإنَّ جبهة الشّام قد استقطبت الجانب الأكبر من اهتمامات أبي بكر، خاصَّة بعد انتصار المُسلمين في العراق وتمَّت خطّة التحرُّك نحو الشّام في السنة الثانية عشرة للهجرة، بعد مُشاوراتٍ أجراها أبو بكر مع كِبار الصحابة من أهل الحل والعقد، ثُمَّ قام بِتعبئة المُسلمين لِغزو هذه البِلاد كان ردَّ فعل المُسلمين الفوري الصَّمت، هيبة للروم، حتّى قام خالد بن سعيد بن العاص الأُموي، فتقبّل الفكرة، فكان أوّل من خرج إلى الشّام بعد أن عقد لهُ أبو بكر لِواء، هو أوّل لِواء عقدهُ لِحربِ الشّام وتحمّست بعض القبائل، للمُشاركة في عمليَّة فُتوح الشّام، وأرسلت مُقاتليها إلى المدينة المُنوَّرة وانطلقت الجُيوش الإسلاميَّة من قاعدتها في المدينة المُنوَّرة باتجاه أهدافها المُحددة وخاضت القوات الاسلامية عدة معارك أقواها معركة مؤاب ومعركة داثن ومعركة مرج الصفّر وتدمر والقريتين وحوارين وبُصرى معركة أجنادين هذه المعارك كانت فى عهد أبو بكر الصديق وكان عهد عمر له نصيب فمن معركة فحل – بيسان إلى معركة مرج الروم وفتح دمشق وفتح بعلبك وحِمص وفُتوح الشّام الوُسطى إلى اليرموك وقنسرين وحلب وأنطاكية وأقصى شمال الشّام إلى فُتح السّاحل اللُبناني واستكمال فُتوح فلسطين والخِراج، ثُمَّ اللُدّ ونواحيها ويبنى وعمواس وبيت جبرين، ثُمَّ هبط جنوبًا ففتح رفح، وفي رواية أنّهُ فتح

عسقلان وكان قد فتح غزّة في عهد أبي بكر، وحاصر قيسارية التي كانت من أشهر المُدن آنذاك.

فتح بيت المقدس

شكّل بيت المقدس القاعدة البيزنطيّة الهامّة، ومركز تجمُّع البيزنطيين الذين فرُّوا من المواقع التي هُزمت فيها جُيوشهم، كما كانت ملجأ للذين خرجوا من المُدن التي فتحها المُسلمون ورفضوا البقاء فيها مثل دمشق وكان الأرطبون وهو أحد القادة البيزنطيين، من بين الذين لجأوا إليه وقاد عمليّة المُقاومة ضدّ المُسلمين وكان المُسلمون قد وضعوا المدينة نصب أعيُنهم مُنذ أن توغلوا في الشّام نظرًا لِمكانتها الدينيّة في الإسلام، فهي أولى القِبلتين وموطن الأنبياء والرُسل، ومسرى الرسول مُحمّد، ومنها عرج إلى السماء قاد عمرو بن العاص عمليّة حِصار المدينة بوصفه قائد الجبهة الفلسطينيّة في الوقت الذي كان فيه أبو عُبيدة وخالد بن الوليد يفتحان شمالي الشّام، وقد واجه مُقاومة ضارية من جانب حاميتها وسُكّانها، ووجد مشقّة بالغة في امتصاص الهجمات البيزنطيّة، فأرسل إلى الأرطبون يطلب منهُ التسليم مثل بقيّة المُدن ووعدهُ بالأمان واستعمل البيزنطيّون المجانيق من فوق الأسوار لِضرب المواقع الإسلاميّة، فسبّبت أضراراً فى الأرواح والمعدّات وعانى المُسلمون من مصاعب طبيعيّة قاسية، إذ اشتدّ البرد وانهمرت الأمطار الغزيرة وتساقطت الثُلوج الكثيفة، فاستغلّ الأرطبون سوء الأحوال الطبيعيّة التي لم يتعوّد عليها المُسلمون ورفض الدُخول في الصُلح، وأطال أمد الحرب، وشدّد ضرباته ضدّهم

وهو يأمل أن يُلحق بهم الهزيمة أو يضطرّهم إلى فك الحِصار عن بيت المقدس اضطرّ عمرو بن العاص، في هذه الظُروف القتاليّة الصعبة، أن يكتب إلى عُمر في المدينة المُنوّرة يطلب منهُ المُساعدة، فاستجاب لِطلبه وأرسل إلى أبي عُبيدة لِيُنجده، وكان قد فرغ لِتوّه من فتح شمال الشّام، فغادر المنطقة ونزل في الجابية، وقد صحبه خالد بن الوليد وأرسل إلى يزيد بأن يبعث أخاه مُعاوية لِفتح قيسارية كي يشغل البيزنطيين على أكثر من جبهة، كما خرج عُمر بنفسه إلى الشّام لِيكون قريباً من مجرى الأحداث نظراً لِأهميَة وضرورة فتح بيت المقدس.

تسلّم أبو عُبيدة فور وُصوله قيادة القُوّات الإسلاميّة، فارتفعت معنويّات الجُند، وتسرّب في المُقابل الخوف والقلق إلى قُلوب المُدافعين خاصّةً بعد أن فشلوا في إلحاق هزيمة مؤكدة بِقوّات عمرو، كما أنّ سُقوط المُدن المُحيطة ببيت المقدس كان لهُ أثره السلبي على معنوياتهم لِأنّهم حُرموا من الإمدادات، ولم تأتهم نجدة من هرقل، وعلموا أنّ عُمر آتٍ فأدركوا أنّ مدينتهم لن تستطيع الاستمرار فى المُقاومة وأنّ سُقوطها أضحى مسألة وقت، فانسحب الأرطبون مُستخفيًا في قُوّة من الجُند إلى مصر وتسلّم بطريرك المدينة العجوز صفرونيوس مقاليد الأُمور، فعرض عليه أبو عُبيدة الإسلام أو الجزية أو الحرب وكان اعتناق الإسلام بالنسبة إلى سُكّان بيت المقدس آنذاك أمرًا صعبًا بل مُستحيلًا، كما أنّ التجربة التي مرّت بها المدينة قبل نحو

خمسةٍ وعشرين سنة حين دمّرها الفُرس جعلت الأهالي يحرصون على الجُنوح إلى السلم إن سنحت الفُرصة لِذلك اختار البطريرك استسلام المدينة على أن يُسلِّمها لِعُمر شخصيًّا ولا أحد سواه وأتى عُمر إلى بيت المقدس وأعطى أهلها الأمان على أنفسهم وأموالهم وبيوتهم وكنائسهم وأديرتهم وجميع دور عبادتهم، كما أعطاهم حُريّة البقاء في المدينة أو الخُروج مع الروم إلى حيثُ يشاؤون ودخل عُمر وأصحابه إلى بيت المقدس بعد عقد الصُلح، ورافقهم البطريرك صفرونيوس يدُلُّهم على آثارها وأماكن الحج فيها، كما دلّهم كعب الأحبار، وهو يهوديٌّ أسلم، على موقع الصخرة المُقدّسة التي عرج منها الرسول مُحمّد إلى السماء وكانت في منطقة الهيكل وأعطى عُمر النصارى عهدًا بألّا يُصلي المُسلمون على عتبات الكنائس جماعة، ولكن فُرادى وألّا يدعوهم لِصلاة الجماعة مؤذّن كي لا يُنفر أهل المدينة من الدين الجديد، كما امتنع عن الصلاة في كنيسة القيامة كي لا يتخذها المُسلمون بعده مسجدًا، وصلّى مُنفردًا خارجها، وابتنى المُسلمون لاحقًا مسجدًا في الموضع الذي صلّى فيه عُمر.

سار يزيد بن أبي سُفيان بصُحبة أخاه مُعاوية إلى قيسارية بناءً على أمر عُمر، فاستكمل فتح قيسارية والأُردُن ومما سهل مهمة الفتح أن ، ثار اليهود في قيسارية فأرسل هرقل أخاه فأخضع الثورة وقتل مُعظم من فيها من اليهود وفرّ من نجا كان لِهذه الحادثة أثرها الإيجابي على عمليّة الفتح، فبفعل العداء التقليدي بين اليهود والروم،

جاء رجلٌ يهوديٌّ يُدعى يُوسُف إلى مُعسكر مُعاوية ودلّهُ على نفقٍ يصلُ إلى بوّابة القلعة داخل المدينة، فتسلّلت مجموعة من المُقاتلين عبر ذلك النفق وفتحوا البوّابة فدخل منها الجيش الإسلامي فوجئ البيزنطيّون عندما رأوا الجُنود المُسلمين داخل المدينة، وتولّأهم الذُعر، ولمّا أرادوا الفرار عبر النفق وجدوا جُنود المُسلمين عليه، فقُتل مُعظمهم وكان فتحُها في شهر شوّال سنة ١٩هـ أكتوبر سنة ٦٤٠م وخِلال تلك الفترة استكمل شُرحبيل بن حسنة فتح إقليم الأُردُن، وكان قد دخل أكثرهُ في طاعة المُسلمين إثر معركة فحل بيسان، ففتح سوسيا وأنيق وجرش وبيت رأس والجولان وغلب على سواده وجميع أرضه.

مُحاولات الروم استرداد البلاد

استطاع البيزنطيّون في سنة ٢٣هـ/ ٦٤٤م أن يستعيدوا بعض مُدن الشّام الساحليّة وأن يتمسكوا بها مُدّة سنتين، منها بيروت وجُبيل، وقد ساعدهم في ذلك كثرة عدد أفراد الجالية البيزنطيّة الموجودة في طرابُلس، وهي المدينة التي بقيت تحت السيطرة البيزنطيّة حتّى ذلك الوقت، وقد تحصّن بها البيزنطيّون الذين فرّوا من المُدن الساحليّة الأُخرى التي فتحها المُسلمون واتخذ البيزنطيّون طرابُلس قاعدةً للوُثوب على الثُغور البحريّة الإسلاميّة بواسطة أساطيلهم المُتفوّقة على المُسلمين، والتي ما زالت تجوب عِباب البحر

المُتوسِّط نتيجةً لِهذا، ولِضرورة إحكام السيطرة الإسلاميَّة على مُدن السَّاحل الشَّامي، عقد المُسلمون العزم على فتح طرابُلس ففتحوها وسيطروا عليها.

الشَّام تحت الحُكم الإسلامي

استقبل المسيحيّون الشوام المُسلمين بالترحاب بعد أن انسحب الروم من البلاد، ويرجعُ تقبّل النصارى للمُسلمين إلى عدَّة أسباب، منها رابطة العرق والقوميَّة، فهم إمَّا سُريانٌ ساميّون مثل العرب المُسلمون، أو عربٌ من بني جلدتهم تجمعهم صلة الرحم، كما ولّدت سياسة الإمبراطوريَّة القاضية بِفرض مذهبها على جميع الرعايا سببًا إضافيًّا جعل المسيحيّين اليعاقبة ينفرون منها، ويُفضلون الهيمنة الإسلاميَّة لأنها تضمن لهم حُريَّة المُعتقد يتجزأ، لذلك لم يكن من أثر الفتح الإسلامي الاستيلاء على قطرٍ غريب، الغاية المباشرة منهُ جباية الضرائب من سُكّانه، وإنّما تحرير جزء من الوطن العربي الذي كان رازحاً تحت طغيان الاحتلال الأجنبي ويذهب المُفكّر والباحث اللُبناني إدمون ربّاط إلى القول بأنَّ السياسة القائمة على عدم الإكراه في الدين إنما هي سياسة إنسانيَّة ليبراليَّة استمالت قُلوب المسيحيين إلى الإسلام وجعلت النصارى يُفضلون العيش في ظلِّه، فلِأوّل مرَّة في تاريخ الشوام عُموماً والمسيحيين خُصوصاً، خرجت دولة لِفتح بِلادهم دون أن تفرض عليهم اعتناق دينها بالقُوَّة، في زمنٍ كان يقضي المبدأ

السائد فيه بإكراه الرعايا على اعتناق دين مُلوكهم، بل وحتّى على الانتماء إلى شكل الزى الخاص الذي يرتديه معتنقوا هذا الدين وأشار مؤرخون إلى أنّ لقب الفاروق الذي حملهُ عُمر بن الخطّاب إنّما لقّبهُ به المسيحيّون الشوام بسبب عدله.

قسّم عُمر ولاية الشّام التليدة إلى أربعة أجناد، وهي: جُندُ دمشق، وجُندُ حِمص، وجُندُ فلسطين، وجُندُ الأُردُن (أُضيف إليها لاحقًا جُندُ قنسرين خِلال العهد الأُموي) وأقام المُسلمون في العديد من المُدن في مُعسكراتٍ خاصّة، وأقام بعضُهم داخل المُدن المفتوحة إلى جانب أهلها من اليهود والنصارى، وتركوهم يُمارسون حياتهم اليوميّة كما اعتادوا في العهد البيزنطي وحافظ المُسلمون على النُظم الإداريّة الروميّة التي كانت تُطبّق في الشّام قبل الفتح، لذا بقيت اللُغة اليونانيّة، وهي لُغة الإمبراطوريّة البيزنطيّة الرسميّة، لُغة التواصل اليومي في الشّام لِحوالي ٥٠ سنة، عندما استُبدلت النُظم الإداريّة الروميّة بِنُظمٍ جديدة مُعرّبة نجم عنها استعرابُ البلاد بشكلٍ تامٍ مع مُرور الوقت.

الباب الرابع

الفتح الاسلامى لمصر

مسير العمليّات العسكريّة

فتح العريش والفرما

وصل الجيش الإسلامي إلى العريش في عيد الأضحى يوم ١٠ ذو الحجّة ١٨هـ ١٢ ديسمبر ٦٣٩م، فوجدها خالية من القُوّات البيزنطيّة، فدخلها وشجّع ذلك الأمر عمرو بن العاص على استئناف التقدّم، فغادر العريش سالكًا الطريق الذي كان يسلكهُ المُهاجرون والفاتحون والتُجّار مُنذُ أقدم العُصور، ثُمّ انحرف جنوباً تاركاً طريق السّاحل، واتّخذ الطريق الذي سار فيه الفُرس عندما استولوا على مصر، حتّى وصل إلى الفرما وكانت أنباء زحف المُسلمين قد وصلت إلى مسامع المُقوقس فاستعدّ للتصدّي لهُم، ولكنّهُ آثر ألّا يصطدم بهم في العريش أو الفرما وتحصّن وراء حصن بابليون، ولعلّ مرد ذلك يعودُ إلى قُرب العريش والفرما من الصحراء، ولِأنّ المُسلمين كانوا أقدر الناس علي الحرب فى الصحراء، بالإضافة إلى قُربها من فلسطين ممّا يجعل إمداد عمرو بِجُنودٍ من بيت المقدس وما جاورها أمراً يسيراً، لِذلك فضّل أن يدع عمرو يمضي في زحفه ويتوغّل في أرض مصر لِيُبعدهُ عن قواعده ثُمّ يُهاجمه واعتمد على حُصون الفرما القويّة لِعرقلة تقدّمه دون أن يُخاطر بالذهاب بِنفسه إلى هُناك أو يُرسل الأرطبون، كبير القادة لِيتولّى ذلك.

عدم اطمئنانه إلى ولاء المصريين للإمبراطوريّة، وخشي أن يستغلوا الفُرصة ويقوموا بِثورة ضدّ الحُكم البيزنطي.

تهيَّبه الدُخول في مُغامرةٍ عسكريّةٍ مع المُسلمين مع علمه بِمقدرتهم القتاليّة وتفوُّقهم في ميدان القتال، خاصّة أنّهم خارجون من انتصاراتٍ مُتلاحقة في الشّام والعراق، ومعنويّاتهم مُرتفعة.

افتقار عمرو إلى آلات الحصار، إذ لم يكن للمُسلمين عهدٌ بِأساليب حِصار المُدن، واعتمدوا في فُتوحهم لِمُدن العراق والشّام على المُواجهة أو الصبر عليها إلى أن يضطرّها الجوع ونقص المُؤن إلى الاستسلام وهكذا ضرب عمرو الحصار على الفرما، وتحصّنت حاميتها البيزنطيّة وراء الأسوار، وجرت مُناوشاتٌ بين الطرفين استمرّت مُدّة شهر، بينما يذكر ياقوت الحموي أنّ القتال بالفرما استمرّ مُدّة شهرين ، ثُمّ اقتحمها المُسلمون في ١٩ مُحرّم ١٩هـ ٢٠ يناير ٦٤٠م وكان أهلُ الفرما وفق بعض المُؤرخين عربًا مسيحيّون من موالي الروم، وكانوا يُؤدون الأموال إلى المُقوقس، وقد رحبوا بالمُسلمين لصلة الرحم،كما كان يسكُنها مصريّون، وتُشيرُ بعض الروايات التاريخيّة أنّ المصريين من أبناء المدينة ساعدوا عمرو بن العاص ضدّ الروم، ذلك أنّ بطريرك الإسكندريّة بنيامين الأوّل لمّا بلغتهُ أخبار قُدوم عمرو بن العاص على رأس الجُند المُسلمين إلى مصر، كتب إلى المصريين يُبشرهم بِقُرب زوال مُلك الروم، وانتهاء حُكمهم في مصر وطلب من

المصريين مُساعدة المُسلمين وقائدهم، كما قيل أنّهُ وجّه رسالةً إلى جميع الأساقفة يطلب منهم أن يُناصروا الفاتحين الجُدد.

أمّن فتح الفرما للمُسلمين المركز المُسيطر على خُطوط مُواصلاتهم مع الشّام، وضمن لهم وُصول الإمدادات التي وعدهم بها عُمر بالإضافة إلى طريق الانسحاب إذا تعرّضوا للهزيمة ولمّا كانت قُوّاته قليلة العدد، ولا يُمكنه ترك حامية عسكريّة لحراستها، فقد هدم عمرو أسوار المدينة وحُصونها حتّى لا يستفيد البيزنطيّون منها فيما لو امتلكوها ثانيةً.

فتح بِلبيس

تابع عمرو توغُّلهُ في أرض مصر بعد فتح الفرما، وانضمّ إليه جُندٌ من البدو المُقيمين على تُخوم الصحراء المصريّة، طمعًا في الغنيمة، فعوّضوا المُسلمين عمّن فقدوه حتّى ذلك الوقت وسار مُنحدرًا إلى الجنوب فتخطّى مدينة مجدل القديمة إلى موقع القنطرة المُعاصر، ومن ثُمّ توجّه غرباً إلى القصاصين - الصالحيّة - ثُمّ انحرف جنوبًا فاجتاز وادي الطميلات حتّى بلغ بِلبيس، وفتح خلال سيره سنهور وتنيس وقد اختار هذا الطريق لِخُلُوّه من المُستنقعات، ولم يلقَ في طريقه الطويل هذا مُقاومةً تُذكر لا من جانب السُكّان ولا من جانب البيزنطيين، ولم يكن يُدافع إلّا قليلاً ضرب عمرو الحصار على المدينة وقاتل حاميتها الروميّة شهراً وكان الروم قد تحصّنوا فيها بِقيادة

الأرطبون، وكان بها أرمانوسة ابنة المُقوقس، وقد جهّزها بأموالها وجواريها وغلمانها وهي في طريقها نحو قيسارية لِتتزوّج من قُسطنطين بن هرقل وينفردُ الواقدي بالإشارة إلى يوقنا صاحب حلب وكان قد اعتنق الإسلام، تقدّم على رأس بعض الجُند وقد تنكروا بزيِ الروم حتّى وصل بِلبيس، في مُحاولةٍ منه أن يستطلع الأخبار ويُمهّد الأُمور، فلم يعلم أحدٌ من البيزنطيين بما أراده، ولمّا علم بِوُجود أرمانوسة في المدينة، سار إليها حتّى يُوهمها بأنّهُ قادمٌ من قِبل قُسطنطين لِيحملها إليه في القُسطنطينيّة، فأحسنت إليه ولِصحبه أولاً، ولكنّها ما لبثت أن علمت بالخديعة التي أرادها، فأعدّت العدّة لِقتاله وبعثت بِكتابٍ إلى أبيها المُقوقس تُعلمه بما حدث، وتُخبرهُ بِتقدّم جُند المُسلمين في الأراضي المصريّة، وسألته الاستعداد لِلقائهم وإرسال قُوّة لِنُصرتها عليهم.

ولمّا عرف المُقوقس بِوُصول المُسلمين جمع كِبار رجال ولاية مصر وسألهم المشورة، فاقترحوا عليه إرسال جيش إلى أرمانوسة لِمُساعدتها ضدّ المُسلمين، إلى جانب الاستنجاد بِجيرانه لِنُصرته عليهم، وجمع الجُيوش من جميع البلاد المصريّة، استعدادًا لِمُواجهة الغُزاة ولكنّ المُقوقس أبى ذلك، وأعلم الحاضرين بِأنّهُ مهما استعد فلن يقوى على هؤلاء، وأنّهُ من الحكمة أن يُرسل إلى ابنته كتاباً يطلب فيه منها التلطّف في مُعاملة يوقنا ومن معه من الجُند المُسلمين، ومنحهم الأمان، وإرسالهم إليه لِتطيب خاطرهم وفى المُقابل، يُشيرُ البعض إلى

أنّ المُقوقس أرسل قُوّةً عسكريّةً للاستطلاع، ولكنّها لم تُحاول إلّا مُناوشة المُسلمين في قتالٍ خفيفٍ، إلّا أنها فشلت في مُهمّتها وخسرت المعركة، فتمزّق الجيش، وقُتل منهُ نحو ألف جُنديّ وأُسر نحو ثلاثة آلاف وفرّ الباقون، كما خسر المُسلمون بعض الجُند ودخلوا على إثر ذلك مدينة بِلبيس أمّا أرمانوسة فأرسلها عمرو بن العاص في جميع مالها إلى أبيها المُقوقس في صُحبة قيس بن سعد بن عبادة الخزرجي، الذي قال للمُقوقس في حديثٍ طويلٍ له معه: أَيُّهَا المَلِك، لَا بُدَّ لَنَا مِنْكُم، أي أنّ فتح المُسلمين لِمصر لا بُدّ وأن يقع، وعرض عليه الإسلام مرّة أُخرى، فوعدهُ المُقوقس بِعرض الأمر على قومه، مع الإشارة إلى أنّهُ واثق من عدم استجابتهم له.

فتح أُم دنين

سار عمرو بن العاص من بِلبيس مُتاخماً للصحراء، فمرّ بِمدينة عين شمس ثُمّ هبط إلى قريةٍ على النيل اسمُها أُم دنين، وتقعُ إلى الشمال من حصن بابليون، وعسكر قريباً منها واشتهرت أُم دنين بِحصانتها، وكان يُجاورها مرفأ على النيل فيه سُفنٌ كثيرة، حتّى أنها كانت تُعتبرُ ميناء قلب مصر،وما كان المُقوقس لِيرضى بِأن تقع في أيدي المُسلمين وأدرك أخيراً خطأ ما اتخذهُ من قرار الإحجام والتصدي للمُسلمين باكراً حتّى وصل خطرهم إلى قلب مصر، فغادر الإسكندريّة إلى حصن بابليون لِيُدير العمليّات العسكريّة ويُشرف عليها، وحشد

جيشاً استعداداً للقتال وجرت بين الجيش الإسلامي وحامية المدينة بعض المُناوشات على مدى عدّة أسابيع لم تُسفر عن نتيجة حاسمة لِأيٍّ منهُما، إنّما بدأ المُسلمون يشعُرون بِتناقص عددهم بمن كان يُقتل منهم في الوقت الذي لم يتأثر البيزنطيّون كثيراً بِفُقدان بعض جُندهم، فاضطرّ عمرو أن يُرسل إلى الخليفة عُمر في المدينة المُنوّرة يستحثُّه في إرسال إمدادات على وجه السُرعة، فوعدهُ بذلك والواقع أنّ موقف عمرو كان حرجاً، فقد علم من خِلال العُيون التي بثّها في المنطقة أنّهُ لن يستطيع أن يُحاصر حصن بابليون أو يفتحه بمن بقي معهُ من الجُند، وبالتالي فتح مدينة منف المُتصلة به، كما أنّهُ يتعذّر عليه التراجع حتّى لا يفُتّ في معنويّات جُنوده، فيُقوّي عليهم عدُوّهم، بالإضافة إلى أنّهُ كان مُصرًّا على فتح منف، غير أنّهُ كان لديه بصيصُ أمل من واقع وعد الخليفة بِإمداده بالمُساعدة ودار في غُضون ذلك قتالٌ شديدٌ تحت أسوار أُم دنين، وكانت كفّة الصراع مُتأرجحة بين النصر والهزيمة من واقع توازن القوى لكنّ الإمدادات تأخّرت في الوُصول، وتضايق المُحاصرون، وكاد اليأسُ يدبُّ في نُفوسهم ولمّا كان فتح أُم دنين يُشكّل ضرورةً قُصوى حتّى يستفيد المُسلمين من السُفن الرّاسية في المرفأ لاجتياز النهر، رأى عمرو أن يُشغل جُنوده بِنصرٍ آخر كسباً للوقت حتّى تصل الإمدادات، فقسّم جُندهُ إلى مجموعتين: ترك إحداها في حصار أُم دنين، وقاد الأُخرى بنفسه إلى مدينة عين شمس ووصلت في غُضون ذلك طلائع الإمدادات، وبلغت

وفق بعض المصادر أربعة آلاف جُنديّ بِقيادة الزُبير بن العوّام، ويذكر المُؤرخون المُسلمون أنّ المدد الذي بعث به الخليفة إلى عمرو بن العاص كان اثني عشر ألف مُقاتل، ويذكر بعضُهم أيضاً أنّهُ كان عشرة آلاف فقط ومهما يكن من أمر فقد قويت عزيمةُ المُسلمين بعد أن بلغتهم الإمدادات وأُسقط في يد حامية أُم دنين فقلّ خُروجهم لِلقاء المُسلمين، فاستغلّ عمرو هذا الإحجام وشدّد حِصاره على المدينة حتّى سقطت في يده، وهُزمت حاميتها الروميّة شرّ هزيمة وفي الحقيقة، أظهر عمرو بن العاص مقدار حنكته العسكريّة والإستراتيجيّة حين قسّم جُندهُ إلى ثلاث فرق، حتّى يُوهم عدوّهُ بِكثرة المُسلمين، وجعلها تُحارب في ميادين ثلاثة مع تركيزه على الهدف الرئيسي، فكان لِهذا صدىً في انتصاره تمكّن بعضُ الروم وقادتهم من الفرار إلى حصن بابليون، في حين هلك كثيرٌ منهم،وسُرعان ما ترك هؤلاء الناجين الحصن ولجأوا إلى مدينة نقيوس، فراراً من مذبحة قد تحلُّ بهم فيما لو تقدّم المُسلمون.

الإغارة على الفيُّوم

تذكرُ بعض الروايات التاريخيّة القبطيّة أنّ فتح الفيُّوم كان بعد حِصار أُم دنين وقبل فتح حصن بابليون، كما تُشيرُ إلى أنّ عمرو بن العاص قد قام بِمُحاولةٍ لِفتح إقليم الفيُّوم قبل إتمام فتح أُم دنين، ولكن لم يُحالفه التوفيق وتنصُّ هذه الروايات على أنّ عمرو سار ومن معهُ

من المُسلمين إلى الجنوب بعد أن عبروا النهر سالمين، وتوجَّهوا نحو الفيُّوم، وعندما وصل إلى تُخومها وجد الحاميات البيزنطيَّة مُتأهبةً للتصدي لهُ بِقيادة دومنتيانوس حاكم الفيُّوم، فاصطدم بِقُوَّة الطليعة بِقيادة يوحنّا وتغلّب عليها وقتل قائدها إلّا أنّهُ لم يتمكن من فتح الفيُّوم وعلِم في هذه الأثناء بِوُصول الإمدادات الإسلاميَّة، فعاد أدراجه إلى الشمال مُنحدرًا مع النهر، واتّصل بالمدد العسكري في عين شمس على مقرُبةٍ من حصن بابليون ولم يُحاول ثُيودور القائد العام للجيش البيزنطي أن يخرج من الحصن لِيحول دون التقاء الجيشين الإسلاميين مُضيعًا فُرصة بيزنطيَّة أُخرى حقّقت غارات عمرو بن العاص على الفيُّوم عدَّة فوائد للمُسلمين لعلّ أهمَّها: إخراج الجيش الإسلامي من المأزق الذي وُجد فيه عند أُم دنين والانتقال به إلى مكانٍ أكثر أمانًا فى انتظار وُصول الإمدادات الإسلاميَّة، وإنجاز بعض الانتصارات ممَّا رفع معنويَّات المُسلمين وفتّ في عضد البيزنطيين الذين أظهروا حُزنًا بالغًا لِمقتل القائد يوحنّا، وبثُّ الرُّعب في قُلوب الحاميات البيزنطيَّة المُنتشرة في النواحي، وإظهار دليلُ قاطع للمصريين على أنّ الوُجود البيزنطي في البلاد بدأ يتعرَّض لِخطرٍ حقيقيّ.

معركة عين شمس

كان من بين الجُنود الذين أرسلهم عُمر بن الخطّاب عددٌ من كبار الصحابة، أمثال الزُبير بن العوّام وعبادة بن الصّامت، والمُقداد

بن الأسود، ومسلمة بن مُخلّد وغيرهم، فاغتبط المُسلمون بمقدمهم وكان الهدف التالي لِعمرو فتح حصن بابليون، فعسكر في عين شمس واتّخذها مقرًّا له، وراح يستعد لمُهاجمة الحصن والمعروف أنّ موقع عين شمس يصلح قاعدةً عسكريّة، فهُو مُرتفع من الأرض يُحيطُ به سورٌ غليظ، ويسهُل الدفاع عنه، وتتوفّر فيه المياه والمُؤن وضع عمرو خطّة تقضي باستفزاز الجُنود البيزنطيين وحملهم على الخُروج من حصن بابليون، لِيُقاتلهم في السهل خارج الأسوار ويبدو أنّ ثُيودور قائد الجيش البيزنطي شعر بالقُوّة بما كان تحت إمرته من المُقاتلين، فخرج من الحصن على رأس عشرين ألفًا وسار بهم باتجاه عين شمس، وكانت على مسافة ستّة أميال أو سبعة من المُعسكر الإسلامي؛ للاصطدام بالمُسلمين وتلقّى عمرو أنباء هذا الخُروج بِسُرورٍ بالغ، فعبّأ قُوّاته استعداداً للقاء المُرتقب، ونفّذ خطّةً ذكيّةً للاطباق على القُوّات البيزنطيّة، ففصل فرقتين من جيشه يبلغ عدد أفراد كُلٍ منها خُمسُمائة مُقاتل، وأرسل إحداهُما إلى أُم دنين، والأُخرى إلى مغارة بني وائل عند قلعة الجبل المُعاصرة شرقي العبّاسيّة، وكانت بِقيادة خارجة بن حُذافة السهمي وسار هو من عين شمس باتجاه القُوّات البيزنطيّة المُتقدِّمة، وتوقّف في موضع العبّاسيّة الحالي ينتظر وُصول جُموع البيزنطيين لِيصطدم بهم وانتشرت القُوّات البيزنطيّة في السهل إلى الشمال الشرقي من الحصن، وإذ بلغهم خُروج المُسلمين من عين شمس، سُرّوا بذلك، وظنّوا أنّهم ضمنوا النصر عليهم،

فتعاهدوا على القتال حتّى الموت، ولم يعلموا بِخطّة عمرو العسكريّة ثُمّ حدث اللقاء، وكان ذلك خِلال شهر شعبان سنة ١٩هـ يوليو سنة ٦٤٠م، ولعلّهُ كان في مكانٍ وسط بين المُعسكرين الإسلامي والبيزنطي عند العبّاسيّة المُعاصرة وأثناء احتدام القتال، خرج أفراد الكمين الذي أعدّهُ عمرو، فاجتاحت فرقة خارجة مُؤخرة الجيش البيزنطي التي فُوجئت وأُخذت على حين غرّة، فحلّت بالروم كارثة إذ وقعوا بين فكيّ الكمّاشة، وتولّى جُنودهم الفزع ودبّت الفوضى في صُفوفهم، فحاولوا الفرار نحو أُم دنين، فأطبقت عليهم الفرقة الأُخرى، وأضحوا بين ثلاثة جُيوش، فانحلّ نظامهم، وإذ أدركوا أنّ لا أمل لهم في المُقاومة والصُمود لاذوا بالفرار لا يلوون على شيء، ونجحت فئة قليلة منهم ببلُوغ الحصن وهلكت فئة كبيرة ودخل المُسلمون إلى أُم دنين مرّة أُخرى، ووطدوا أقدامهم على ضفاف النيل عندما بلغت أنباء الهزيمة من بِحصن بابليون من الجُند الروم خافوا على أنفُسهم، ففرّ بعضهم عبر النهر إلى مدينة نقيوس إلى الشمال من منف، وبقي بعضُهم الآخر في الحصن للدفاع عنه استغلّ عمرو انتصاره الحاسم هذا، فنقل مُعسكره من عين شمس وضربهُ في شمال الحصن وشرقه بين البساتين والكنائس، وهو المكان الذي عُرف فيما بعد بالفسطاط، ثُمّ سار إلى مدينة منف واستولى عليها بدون قِتال ولم يستطع الجيش البيزنطي الموجود في الحصن أن يمُد لها يد المُساعدة.

فتح الفيُّوم

تنُصُّ بعض الروايات التاريخيَّة القبطيَّة على أنَّ عمرو بن العاص ما أن وصلهُ المدد من الخليفة حتّى وجَّه جهُوده لِإتمام الإستيلاء على إقليم الفيُّوم وتنص هذه المصادر على أنَّ من تولّى الدفاع عن الفيُّوم كان قائد الحامية الروميَّة المدعو يوحنّا، كما أقام الروم أيضاً حامية في مدينة اللاهون لِتُتابع تحرُّكات القُوَّات الإسلاميَّة وتنقل أخبارها إلى يوحنّا وجُنده المُقيمين بالقُرب من شاطئ النهر وأرسل الروم سريَّة من الرُماة والفُرسان لِتحول بين المُسلمين الفاتحين وبين تقدُّمهم نحو الفيُّوم وهكذا بذلت القُوَّات الروميَّة كُل الجُهود العسكريَّة لِمُواجهة الفتح الإسلامي واضطرَّ المُسلمون إلى الزحف في الصحراء، وواصلوا تقدُّمهم حتّى وصلوا إلى البهنسا، وقضوا على حاميتها الروميَّة ثُمَّ اتجهوا لِقتال حامية يوحنّا التي لجأت إلى مدينة أبويط ولكنَّ القُوَّات الإسلاميَّة حاصرتها وقضت عليها وعلم ثيودوسيوس حاكم إقليم الفيُّوم وإنستاس حاكم مدينة الإسكندريَّة بانتصارات المُسلمين، فسارعا بالفرار إلى حصن بابليون، حيثُ لحق بهما بعض القادة من أبويط، وأخبراهم ومن معهم من القُوَّات المُحتشدة بِخُطورة الموقف وبعد نجاح عمرو بن العاص وجُنده في الاستيلاء على أُم دنين وإلحاق الهزيمة بالبيزنطيين، أعدَّ العدَّة لِإتمام فتح الفيُّوم وكان يقوم بأمرها بعد هرب ثيودوسيوس شخصٌ يُدعى

دومنتيانوس، فأصابهُ الذُعر عندما علم بانتصارات المُسلمين الساحقة على الروم، فأسرع بالفرار إلى مدينة نيقوس دون أن يعلم بِقراره أحد، تاركاً الفيُّوم وشأنها، فعلم عمرو بن العاص بذلك، واشتدّ ساعده، وأرسل فرقة من جُنده نجحت في الاستيلاء على مدينة الفيُّوم ومدينة أبويط وهكذا تمّ للمُسلمين فتح إقليم الفيُّوم وباءت جُهودُ الروم بالفشل.

هذه هي الروايات القبطيَّة التي تتحدَّث عن فتح المُسلمين لِإقليم الفيُّوم، ولكن المُؤرخين المُسلمين يجمعون على أنَّ فتح الفيُّوم كان بعد فتح حصن بابليون، وليس قبله، وتُشيرُ بعض المصادر الإسلاميَّة إلى أنَّ المُسلمين ظلّوا يجهلون مكان إقليم الفيُّوم بعد فتح الحصن بسنةٍ كاملة، حتّى دلّهم عليه بعضُ المصريين، فأرسل عمرو بن العاص أحد قادته على رأس قُوَّة عسكريَّة لِفتح الفيُّوم، وأنَّ هذه القُوَّة توغلت في جنوب الدلتا فاستولت على أثريب ومنوف في إقليم المُنوفيَّة ويبدو أنَّ أهل مصر، من المسيحيين بِصفة خاصَّة، بدأوا يُقدِّمون المُساعدات الفعَّالة للمُسلمين ويتعاونون معهم، بعد استيلائهم على إقليم الفيُّوم فقد طلب عمرو من أبي قيرس حاكم دلاص أن يبعث إلى القُوَّات الإسلاميَّة في الفيُّوم بعض السُفن لِينتقلوا بها من الجانب الغربي للنيل إلى الجانب الشرقي للسيطرة على ضفّتيّ النيل كما طلب عمرو أيضاً من الأعيرج (لعلّهُ تحريف لاسم جورج أو جرجس) حاكم إقليم منف، أن يبني جسراً على قناة مدينة قليوب حتّى يتمكّن من فتح

المُدن المصريّة كما أنّ فتح مدينتيّ أثريب ومنوف تمّ بمُساعدة المصريين النصارى له.

فتح حصن بابليون

لم يبقَ بِأيدي البيزنطيين سوى حصن بابليون، فكان هدف عمرو التالي قبل أن يتوجَّه إلى الإسكندريَّة لِفتحها إذ لم يشأ أن يُشتِّت قُوَّاته ويُضعفها لِيذر قسمًا منها على حصار الحصن ولِيسير بالقسم الآخر إلى الشمال حتّى يبلغ الإسكندريَّة، ممَّا يُشكِّلُ خطرًا على إنجازاته التي حقّقها حتّى ذلك الحين من رد فعل البيزنطيين الذين سوف يستغلّون هذه الفُرصة ليستعيدوا ما فقدوه من أراضٍ ويطردون المُسلمين من مصر، لِذلك ركّز جُهوده العسكريَّة على فتح الحصن، فسار إليه في شهر شوَّال سنة ١٩هـ سبتمبر سنة ٦٤٠م وحاصره ويقعُ حصن بابليون قُرب منف ومُقابل جزيرة الروضة التي تُحيط بها مياه النيل، وكان من أقوى الحُصون بعد الإسكندريَّة، لقربه من منف ولِمناعة أسواره، فهُو مبني بالطوب والحجر، ويبلغ عرض جُدرانه نحو ثمانية أقدام وارتفاعها نحو ستين قدماً، وأبراجه مُرتفعة، وهو مُحاطٌ بالخنادق ومياه النيل أدرك سُكّان الحصن وأفراد حاميته أنَّ الحصار سوف يطول لِسببين: الأوَّل هو أنَّهُ بدأ في وقت فيضان النيل وارتفاع مياهه، فيتعذّر على المُسلمين أن يجتازوه أو يُهاجموا الحصن، ولا بُدَّ لهم من الانتظار حتّى هُبوط الفيضان؛ الثاني هو أنَّ مناعة الحصن ومتانة أسواره وما يُحيط به من الماء وضعف وسائل الحصار سوف يُشكِّلُ عائقًا أمام المُحاصرين من الصعب أن يجتازوه

بسُرعة، وما غنموه من بعض آلات القتال لم يكن لهم خبرة باستعمالها أو بِطُرق إصلاحها إذا تعطّلت، لِذلك استعدَّ الطرفان لِحصارٍ طويل والواقع أنَّ الحصار لم يكن مُحكمًا، فقد ظلّت طريق الإمدادات بين الحصن وجزيرة الروضة مفتوحة لِأنَّ عمرو لم يكن قد أحكم سيطرته على الطُرق المائيَّة بعد.

كان عددٌ من حُكّام الروم من ضمن المُتحصنين في بابليون، وما أن عرفوا بِقُدوم المُسلمين وانتصارهم في إقليم منف ومُساعدة بعض المصريين لهم، بادروا بالخُروج إلى الإسكندريَّة، تاركين الحامية تتولّى مُهمَّة الدفاع عنه، ومما زاد في إحباطهم وخوفهم أنَّ بعض المصريين اعتنقوا الإسلام وانضموا إلى الجيش الإسلامي بِقيادة عمرو بن العاص، فكانوا له خير أعوان وأدلّاء يصحبونه ويدُلونه على الطُرق والمواقع، ويُخبروه عن أسرار وأوضاع الروم ويُشيرُ بعض المُؤرخين إلى أنَّ المُقوقس كان في جزيرة الروضة عندما ضرب المُسلمون الحصار على الحصن، وقيل كان في الحصن مع سائر القادة ولم يخرج منه إلّا بعد شهر، أمّا قيادة الجيش فكانت للأعيرج وتراشق الطرفان بالمجانيق من جانب البيزنطيين والسهام والحجارة من جانب المُسلمين، مُدَّة شهر، حيثُ بدأ فيضان النيل فى الانحسار وأدرك المُقوقس أنَّ المُسلمين صابرون على القتال وأنّهم سيقتحمون الحصن لا محالة، كما يئس من وُصول إمدادات من الخارج، فاضطرَّ إلى عقد اجتماع مع أركان حربه للتشاور في الأمر، وتقرَّر بذل المال لهم

ليرحلوا عنهم وأن يذهب المُقوقس بِنفسه للتفاوض مع عمرو في هذا الشأن بشكلٍ سريٍّ حتّى لا يعلم أحد من المُدافعين عن الحصن، فتهن عزائمهم فخرج من الحصن تحت جُنح الظلام مع جماعة من أعوانه، وركب سفينة إلى جزيرة الروضة فلمّا وصل إليها أرسل رسالةً إلى عمرو مع وفدٍ ترأسهُ أُسقف بابليون، يعرض عليه أن يُرسل وفدًا لِإجراء مُفاوضات بِشأن التفاهم على حلٍّ مُعيّن تعمّد عمرو بن العاص الإبطاء في الرّد مُدّة يومين وأبقى أعضاء الوفد عنده رغبةً منه أن يطّلع المُقوقس وأهل مصر على بأس المُسلمين وحالهم ومهما يكن من أمر، فقد عاد أعضاء الوفد بعد يومين يحملون رد عمرو يُخيّرُ المُقوقس بين الإسلام أو الجزية أو القتال كان من الصعب على المُقوقس وجماعته التخلّي عن المسيحيّة واعتناق الإسلام، ذلك الدين الذي لا يعرفون عنهُ شيئًا، وبذلك رفضوا الشرط الأوّل، وخشوا إن هُم قبلوا دفع الجزية أن يستضعفهم المُسلمون، ويذُلّوهم في الوقت الذي استبعدوا فيه فكرة الحرب خشية الهزيمة خاصّةٍ بعد أن وصف أعضاء الوفد وضع المُسلمين الجيّد وتضامُنهم ومع ذلك فقد قبل المُقوقس الدُخول في الصُلح، وطلب من عمرو أن يُرسل إليه جماعةً من ذوي الرأي للتباحُث بِشُروطه، فأرسل إليه وفدًا برئاسة عبادة بن الصّامت، فاستقبلهُ الروم والمصريّون حيثُ طمأنهم بأنّهم سيكونون آمنين على أنُفسهم وأموالهم وكنائسهم وصُلبانهم ونسائهم وذراريهم إن هُم قبلوا دفع الجزية، ممّا شجّع المُقوقس على المضيّ في طريق الإذعان.

استضاف عمرو عقب هذا الصُلح الروم ومن معهم من المصريين، وصنع لهم الثريد الخُبز الذي يُفت ثُمَّ يُبل بالمرق والعراق العظم الذي أُكل لحمُه وأمر أصحابه أن يقعُدون على رُكبهم إلى جانب الروم في مُحاولةٍ منه لِتهدئة روعهم والتأكيد على أنَّ المُسلمين لم يأتوا للاعتداء على الأهالي وسلبهم نفائسهم ومُقدَّساتهم ولكن يبدو أنَّ القُبول بِقرار الاستسلام لم يكن عامّاً، فقد وُجدت فئة من الجُند رفضت الصُلح مع المُسلمين، وكانت بِقيادة الأعيرج، وأصرَّت على المُقاومة المُسلّحة، عند ذلك طلب المُقوقس من عمرو المُهادنة مُدَّة شهر للتفكير في الأمر، فمنحهُ ثلاثة أيَّام ولم تلبث أنباء المُفاوضات أن انتشرت بين عامّة الجُند، فثارت ثائرتهم ضدَّ المُقوقس ولمَّا انتهت أيَّامُ الهدنة، استعدَّ الطرفان لاستئناف القتال.

أحرز المُسلمون بعض الانتصارات ممَّا دفع المُقوقس إلى تجديد الدعوة لِأركان حربه للاستسلام، فقبلوا مُكرهين، واختار المُقوقس دفع الجزية، واشترط موافقة الإمبراطور هرقل وتجميد العمليَّات العسكريَّة حتّى يأتي الرد من القُسطنطينيَّة، وتبقى الجُيوشُ في أماكنها خِلال ذلك، وتعهَّد أن يبعث بِعهد الصُلح إلى القُسطنطينيَّة لِأخذ مُوافقة الإمبراطور غادر المُقوقس حصن بابليون وتوجَّه إلى الإسكندريَّة حيثُ أرسل عهد الصُلح إلى القُسطنطينيَّة وطلب مُوافقة هرقل عليه، لكنَّ الأخير لم يقتنع بِوجهة نظر المُقوقس بِشأن الصُلح مع المُسلمين، ورأى أنَّ العوامل القوميَّة والجُغرافيَّة التي ساعدت هؤلاء على فتح

الشّام غير مُتوفرة في مصر، وأنّ بِحوزته المُقوقس قُوّةٌ عسكريّةٌ كبيرة تفوقُ في العدد قُوّة المُسلمين، كما أنّ الحصن كان متيناً يصعبُ على المُسلمين اقتحامه، فلا يُعقلُ والحالةُ هذه أن ينتصر المُسلمون، ولا بُدّ من وُجود سر في الأمر أدّى إلى هذه النكبة واتّهمهُ بالتقصير والخيانة والتخلّي للمُسلمين عن مصر،ونفاهُ بعد أن شهّر به، ورفض عرض الصُلح مع المُسلمين علِم المُسلمون بِرفض هرقل لِعهد الصُلح في شهر ذي الحجّة ١٩هـ ديسمبر ٦٤٠م.

فانتهت بذلك الهدنة واستأنف الطرفان القتال كان المُدافعون عن الحصن قد قلّ عددهم بسبب فرار كثيرٍ منهم إلى الإسكندريّة، ولم تأتهم نجدة من الخارج، وبدأ المرض ينتشر بينهم، وانتهى فيضان النيل وغاض الماء عن الخندق حول الحصن، فأضحى بِمقدور المُسلمين الآن أن يُهاجموه وتُشيدُ بعض المصادر التاريخيّة بِجُهود الروم التي بُذلت للدفاع عن الحصن ومُقاومة الفتح الإسلامي فقد ألقوا حسك الحديد في الخندق بدل الماء،وتراشقوا مع المُسلمين بالمجانيق والسهام وجاءهم وهُم على هذه الحال نبأ وفاة الإمبراطور هرقل في شهر ربيعِ الأوّل سنة ٢٠هـ فبراير ٦٤١م، ففتّ ذلك في عضُدهم،واضطربوا لِموته، وتراجعت قُدرتهم القتاليّة، ممّا أعطى للمُسلمين فُرصة لِتشديد الحصار قبل أن يقتحموا الحصن في ٢١ ربيع الآخر ٢٠هـ أبريل ٦٤١م وقد اعتلى الزُبير بن العوّام مع نفرٍ من المُسلمين، السُّور، وكبّروا، فظنّ أهلُ الحصن أنّ المُسلمين اقتحموه،

فهربوا تاركين مواقعهم، فنزل الزُبير وفتح باب الحصن لِأفراد الجيش الإسلامي فدخلوه وفي رواية أنَّ الزُبير ارتقى السُّور، فشعرت حامية الحصن بِذلك، ففتحوا الباب لِعمرو وخرجوا إليه مُصالحين، فقبل منهم ونزل الزُبير عليهم وخرج على عمرو من الباب معهم واتفق أهلُ الحصن مع عمرو على رد ما أُخِذَ منهم عنوة والإبقاء على السبايا وأجروا من دخل في صلحهم من الروم والنوب مجرى أهل مصر، ويقول ابن الأثير أن الخليفة عُمر عاد ورد سبايا من لم يُقاتلهم .

ساعد بعضُ المصريين عمرو بن العاص أثناء حصاره للحصن، فقد تقدَّم إليه فريقان على التوالي أحدهُما بِقيادة شخص يُدعى مينا والآخر بِقيادة قُزما بن صموئيل، وقد قدموا على عمرو من الشاطئ الغربي للنيل، وكان هدفهم الكيد للروم، وهُم من أهالي إقليم الفيُّوم وكانت المُعاونات التي يُقدِّمُها المصريّون للمُسلمين تدعمُ جُهودهم، وتُضعفُ من مُقاومة الروم، وتُحرج موقفهم، وتُقلل من هيبتهم واتخذت المُساعدات التي قدَّمها المصريّون للجيش الإسلامي أثناء حِصار الحصن صُورًا عديدة، منها رفض أهل سمنود قتال المُسلمين عندما طلب منهم القائد ثُيودور ذلك كي يصرف انتباه عمرو عن الحصن بعض الشيء، كما قيل أنَّ المصريّون من أعضاء الحامية الذين فتحوا أبواب الحصن لِعمرو رأوا في ذلك خير انتقامٍ لهم من الروم الذين لم يُراعوا حُرمة عيد الفُصح، فأخرجوا في هذا اليوم المصريين الذين كانوا في سجن الحصن لِرفضهم اتباع مذهب

الإمبراطور الديني وأساءوا مُعاملتهم، فانهالوا عليهم ضرباً بالسياط وقطّعوا أيديهم.

الزحف نحو الإسكندريَّة

كان لِسُقوط حصن بابليون، ذلك الموقع العسكري الحصين الذي حُشدت فيه أعظم طاقات البيزنطيين العسكريَّة في مصر، التأثير الجذري على مسار المعركة، حيثُ أنَّ الطريق بات مفتوحًا إلى الإسكندريَّة بعد الانتهاء من فتح حصن بابليون، طلب عمرو من الخليفة أن يأذن لهُ بالزحف نحو الإسكندريَّة لِفتحها وضمِّها إلى الأراضي الإسلاميَّة، وهي خُطوةٌ لا بُدَّ منها لاستكمال فتح مصر، ثُمَّ أخذ يُنظِّمُ إدارة البلاد المفتوحة والحقيقة أنَّ الخليفة لم يتأخّر في منح الإذن لِقائده بالسير إلى الإسكندريَّة، خاصَّةً أنَّهُ علم أنَّ النيل سيعود بعد ثلاثة أشهر إلى مدِّه وفيضانه وأنَّهُ من الأفضل أن يسير جيش مصر إلى الإسكندريَّة قبل ذلكوما لبث عمرو حين تسلّم الإذن أن زحف نحو الإسكندريَّة، وترك حاميةً عسكريَّةً في حصن بابليون بِقيادة خارجة بن حُذافة السهميّ كانت الإسكندريَّة في ذلك الوقت قصبة الديار المصريَّة، وثاني حواضر الإمبراطوريَّة بعد القُسطنطينيَّة، وأوَّلُ مدينةٍ تجاريَّةٍ في العالم، وقد أدرك البيزنطيّون أنَّ سُقوطها في أيدي المُسلمين من شأنه أن يُؤدّي إلى زوال سُلطانهم من مصر، وقد عبَّر الإمبراطور البيزنطي عن ذلك بِقوله:لَئِن ظَفَرَ العَرَبُ بِالإِسْكَندَرِيَّةِ فَقَد هَلَكَ الرُّومُ وَانقَطَعَ مُلكَهُم فَلَيْسَ لِلرُّومِ كَنَائِسَ أَعْظَمُ مِن كَنَائِسَ الإِسْكَندَرِيَّة فأسرعوا بِإرسال المُقوقس على رأس قُوَّةٍ عسكريَّةٍ وصل

المُقوقس إلى الإسكندريّة في شهر شوّال سنة ٢٠هـ، سبتمبر سنة ٦٤١م، وفي نيّته الدُخول في صُلحٍ مع المُسلمين بِسبب عجزه عن مُواجهتهم، خاصّةً أنّهُ بدت في الأُفق السياسي ملامح انهيار الإمبراطوريّة البيزنطيّة، لكن يبدو أنّ أركان حربه رفضوا هذا وأصرّوا على المُقاومة.

غادر عمرو بن العاص حصن بابليون في شهر جمادى الأولى ٢٠هـ مايو ٦٤١م، وقد آثر السير على الضفّة اليُسرى للنيل حيثُ محافظة البحيرة المُعاصرة، حتّى لا تُشكّلُ الترع الكثيرة المُنتشرة جنوب الدلتا عائقًا يُؤخّر زحفه، وخِلال زحفه لقي كثيرًا من المُساعدات والمُعاونات التي قدّمها المصريّون،فقد أصلحوا الطُرق، وأقاموا الجُسور والأسواق،كما اصطحب معهُ عددًا من زُعمائهم لِيكونوا أداة اتصالٍ بينهُ وبين من يلقاهم في طريقه ولم يلق عمرو أيّة مُقاومة على طُول الطريق من حصن بابليون إلى الإسكندريّة حتّى بلغ قرية ترنوط حيثُ التقى بالروم ودار القتال بين الفريقين، وتحقق النصر للمُسلمين وتابع المُسلمون تقدّمهم حتّى وصلوا إلى نيقوس الواقعة على بُعد عدّة فراسخ من منوف، فأسرع سُكّانها إلى التسليم والإذعان، لكنّ حامية الحصن أصرّت على المُقاومة، وهذا يعني أنّهُ لم يكن هُناك تنسيق بين السُكّان الوطنيين والحاميات البيزنطيّة، ولعلّ مرد ذلك يعود إلى فُقدان الثقة بين الجانبين بسبب العداء المُستحكم بينهُما فاصطدم

عمرو بِأفراد الحامية وانتصر عليهم، ودخل نيقوس، وفرّت فُلول المُنهزمين إلى الإسكندريّة.

تابع المُسلمون تقدُّمهم، واصطدموا بِقُوّةٍ عسكريّةٍ بيزنطيّةٍ أُخرى عند قرية سلطيس وتغلّبوا عليها وكان حصن كريون آخر سلسلة الحُصون قبل الإسكندريّة، وقد اعتصم به ثُيودور قائد الجيش البيزنطي مع حاميةٍ قويّةٍ، كما تدفّقت عليه الإمدادات من المناطق المُجاورة واشتبك الطرفان في عدّة معارك على مدى بضعة عشر يوماً، كان بعضُها شديدًا حتّى أنّ عمرو صلّى يوماً صلاة الخوف وتمكّن المُسلمون أخيراً من اقتحام الحصن، وتغلّبوا على الحامية العسكريّة، فقتلوا بعض أفرادها وفرّ البعضُ الآخر إلى الإسكندريّة للاحتماء بها، وكان ثُيودور من بين هؤلاء. وطاردهم المُسلمون حتّى بلغوا الإسكندريّة في مُنتصف رجب ٢٠هـ يونيو ٦٤١م.

فتح الإسكندريّة

كانت الإسكندريّة مدينةً منيعة، ذات حُصونٍ عظيمة، وقد عسكر الجُند المُسلمون بالقُرب منها، وكان يصحبُهم رؤساء المصريين الذين كانوا يُقدمون الطعام للجُند المُسلمين، والعلف لِخُيولهم كما كانوا يدُلّونهم إلى الطُرق والمسالك المُؤدية إلى المدينة والحقيقة أنّ أهل المُدن المصريّة المُجاورة للإسكندريّة انقسموا إلى فريقين: فريقٌ مع القائد العام الرومي ثُيودور، والآخر يُؤيّد الجيش الإسلامي وسادت

البلاد حالة أشبه بالحرب الأهليّة، فكان أتباع كُل فريق ينقض على أتباع الفريق الآخر، وساد الإسكندريّة جوٌّ من الاضطراب والفتنة، وقد تنازع الرؤساء والحُكّام والقادة كما انقسم الأهالي والمُهاجرون إلى فريقين مُتاخصمين، ونشب القتال بينهُما، وراحت ضحيّته أعدادٌ هائلة ويتّضح من هذه الرواية التاريخيّة أنّ ذلك النزاع قد نتج عن عداءٍ شخصيٍ وتنافُسٍ سياسيّ إلى جانب الخلافات الدينيّة سواء أكان ذلك الخلاف بين الملكانيين واليعاقبة، أم بين المسيحيين بِصفةٍ عامّة وبين اليهود، وإن كان يبدو من الروايات التاريخيّة السّابقة أنّ اليهود كانوا مُسالمين طيلة سنوات الفتح، إذ لم يرد لهم أيُّ ذكرٍ في المصادر التاريخيّة أدرك عمرو، فور وُصوله للإسكندريّة ودراسته للوضع الميداني، أنّ المدينة حصينة إذ يُحيطُ بها سوران مُحكمان، ولها عدّة أبراج ويُحيطُ بها خندق يُملأُ من ماء البحر عند الضرورة للدفاع، وتتألّف أبوابها من ثلاث طبقات من الحديد، ويُوجد مجانيق فوق الأبراج، ومكاحل، وقد بلغ عدد جُنود حاميتها بعد الإمدادات التي أرسلها الإمبراطور البيزنطي خمسين ألف جُندي، ويحميها البحر من الناحية الشماليّة وهو تحت سيطرة الأُسطول البيزنطي، الذي كان يمُدّها بالمُؤن والرجال والعتاد، وتحميها قريوط من الجنوب، ومن المُتعذّر اجتيازها، وتلُفّها ترعة الثُعبان من الغرب، وبذلك لم يكن للمُسلمين طريقٌ إليها إلّا من ناحية الشرق، وهو الطريق الذي يصلُها بِكريون وكانت المدينة حصينة من هذه الناحية، ومع ذلك لم ييأس

عمرو بن العاص، ووضع خطّة عسكريّة ضمنت لهُ النصر في النهاية؛ قضت بتشديد الحصار على المدينة حتّى يتضايق المُدافعون عنها ويدبُّ اليأس في نُفوسهم، فيضطرّوا للخُروج للاصطدام بالمُسلمين لتخفيف وطأة الحِصار، وهكذا يستدرجهم ويحملهم على الخُروج من تحصيناتهم ثُمّ ينقضُّ عليهم.

بناءً على هذا، نقل عمرو مُعسكره إلى مكانٍ بعيدٍ عن مرمى المجانيق، بين الحُلوة وقصر فارس واستمرّ الوضع على ذلك مُدّة شهرين لم يخرج البيزنطيّون من تحصيناتهم للقتال، سوى مرّة واحدة حيثُ خرجت قُوّةٌ عسكريّةٌ بيزنطيّة من ناحية البحيرة واشتبكت مع قُوّة إسلاميّة ثُمّ ارتدّت إلى الحصن، ولعلّها كانت بمثابة قُوّة استطلاع أو جس نبض ورأى عمرو أن يقوم بعملٍ عسكريٍّ يُشغلُ به جُنوده، إذ أنّ الانتظار قد يُؤثّر على معنويّاتهم القتاليّة، ويدفعُهم إلى الخُمول، فشغلهم بالغارات على الدلتا، وأبقى مُعظم جُنوده على حصار الإسكندريّة وقد نجحت الفرق العسكريّة الإسلاميّة هذه فى السيطرة على ما تبقّى من قُرى وبلدات بقيّة الوجه البحري، في الوقت الذي اشتدّ فيه الصراع بين المصريين والبيزنطيين فى الإسكندريّة وانقطعت الإمدادات البيزنطيّة فلم يعد أحدٌ مهتم بالدفاع عنها، ممّا أثّر سلبًا على معنويات المُدافعين عنها، فرأوا أنفُسهم معزولين ولا سند لهم. وممّا زاد من مخاوفهم ضمّ المُسلمين لِقُرى الدلتا والسّاحل، الأمر الذي قطع الميرة عنهم وفي ذلك الوقت كان عُمر بن الخطّاب في المدينة المُنوّرة

ينتظرُ أنباء مصر، وهو أشدُّ ما يكون استعجالًا لِنبأ سُقوط الإسكندريَّة في أيدي المُسلمين ولكنَّ هذا النبأ أبطأ عنهُ أشهُرًا، فراح يبحثُ عن السبب وهو لم يُقصِّر عن إمداد عمرو بما يحتاج إليه من المُساندة التي تكفلُ لهُ النصر، وخشي أن تكون خيراتُ مصر قد أغرت المُسلمين، فتخاذلوا، وقال لِأصحابه: مَا أَبْطَأُوا بِفَتْحِهَا إِلَّا لِمَا أَحْدَثُوا ثُمَّ كتب إلى عمرو يعظه ويستعجله ويُنبهه أنَّ النصر لن يكون حليف المُسلمين إلَّا لو أخلصوا النيَّة، وطلب منهُ أن يخطُب في النَّاس ويحُضَّهم على قتال عدُوِّهم ويُرغِّبهم في الصبر والنيَّة، وأن يدعوا المُسلمين الله ويسألوه النصر.

شكَّل كتابُ عُمر عامل دفعٍ للمُسلمين فاقتحموا حُصون الإسكندريَّة ففتحوها بِحدِّ السيف في ٢٨ ذو القعدة ٢٠هـ نوفمبر ٦٤١م بعد حصارٍ دام أربعة أشهُرٍ ونصف وفرَّ البيزنطيّون منها فى كُلِّ اتجاهٍ للنجاة بأنفُسهم، وأذعن سُكّانها من المصريين، واستبقى عمرو أهلها ولم يقتل ولم يسبِ وجعلهُم ذمَّة كأهل حصن بابليون وتذكر بعض المصادر التاريخيَّة أنَّ المُقوقس طلب من عمرو بن العاص، أثناء حصار الإسكندريَّة، الصُلح والمُهادنة لِمُدَّة مُعيَّنة، فرفض عمرو ثُمَّ تقول هذه المصادر: إلَّا أنَّ القبط في ذلك يُحبّون المُوادعة، وقد تدلُّ هذه العبارة على أنَّ المُقوقس والمصريين المُعتصمين بالإسكندريَّة أرادوا الصلح والمُهادنة، في حين أصرَّ الروم على مُواصلة القتال ويُشيرُ عددٌ من المؤرخين إلى عدم إمكانيَّة تأييد هذه

الرواية التي تذهب إلى وُجود المُقوقس بالإسكندريّة، لأنّ هُناك رواياتٌ أُخرى تُشير إلى وُجوده في حصن بابليون خِلال هذه الفترة وتذكرُ بعض الروايات أنّ الذي ساعد عمرو والمُسلمين على فتح الإسكندريّة رجلٌ يُسمّى ابن بسّامة، وكان على أحد أبواب المدينة وقد طلب الأمان من عمرو بن العاص على نفسه وأرضه وأهل بيته، على أن يفتح له باب المدينة، فأجابهُ عمرو إلى ذلك ودخل عمرو والمُسلمون من جهة القنطرة التي يُقالُ لها قنطرة سُليمان وتنصُّ مراجع أُخرى أنّ عمرو ترك فرقة من جُنده لِحراسة المدينة، وأسرع بِقُوّاته لِتتبع الفارين برًّا لكنّ الروم الذين هربوا عن طريق البحر رأوا أنّ الفُرصة مُواتية لاستعادة الإسكندريّة، فعادوا إليها وقتلوا من بها من المُسلمين وعلم عمرو بذلك، فعاد إلى الإسكندريّة وقاتل هؤلاء الروم وأجلاهم تتباينُ الروايات التاريخيّة حول كيفيّة إتمام فتح الإسكندريّة وجلاء الروم عنها نهائيًّا، فقال البعض أنّ الفتح كان عنوةً، بينما قال آخرون أنّهُ كان صُلحًا، لكن ممّا لا خلاف فيه أنّ دُخولها في حظيرة دولة الخِلافة الراشدة كان في أوّل مُحرّم ٢١هـ ١٧ سبتمبر ٦٤٢م وتنص أكثر الروايات شُيوعاً، وهي الرواية القبطيّة، أنّ الإسكندريّة فُتحت صُلحًا، إذ فوّض الإمبراطور قُنسطانز إلى المُقوقس عقد الصُلح مع المُسلمين في الإسكندريّة ومعهُ القائد ثُيودور في ١٤ سبتمبر ٦٤١م ثُمّ قصد بابليون حيثُ اجتمع بِعمرو بن العاص ووقّع على عقد الصُلح في ٨ نوفمبر ٦٤١م، ويقضي اتفاق الصُلح بِتسليم الإسكندريّة على أن يبقى

المُسلمون مُدَّة أحد عشر شهرًا خارجها حتّى يُبحرُ عنها البيزنطيّون، وأن لا يعود جيشٌ من الروم إلى مصر أو يسعى لِردِّها، وأن يُقدموا لِعمرو بن العاص مائة وخمسين جُنديًّا وخمسين مدنيًّا بِمثابة رهائن، وأن يكف المُسلمون عن أخذ كنائس المسيحيين ولا يتدخلوا في أُمورهم أي تدخُّل وبناءً عليه خرج البيزنطيّون من الإسكندريَّة بحرًا ودخلها المُسلمون وأعطوا الأمان لِأهلها، لتنتهي بذلك العمليَّات العسكريَّة، وتخرج مصر نهائيًّا من تحت راية بيزنطّة وتدخل تحت ظل الرَّاية الإسلاميَّة، ويبدأ فصلٌ جديد من التاريخ في الديار المصريَّة.

الباب الخامس

أثر الفتح الاسلامي على العرب

الرسول يحدث تغييراً حقيقياً

لقد استطاع الاسلام في مدة لا تتجاوز سنواتها عدد أصابع اليدين أن يحقق أعظم انجاز في منطقة كانت لها تلك الصفات والمميزات وأن يحدث تغييراً حقيقياً وجذرياً في عواطف وسلوك وعقلية وأخلاق تلك الأمة، وفي مفاهيمها وأن ينقلها من العدم إلى الوجود ومن الموت إلى الحياة ولقد عبّر عن ذلك جعفر بن طالب لملك الحبشة بعدما بيّن له الأوضاع المتردية التي كان يعيشونها قبل مبعث الرسول (ص) فقال :فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولاً منا نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه فدعانا إلى الله لتوحده ونعبده ونخلع ما كنا نعبد نحن وأباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان وأمرنا بصدق الحديث وأداء الامانة وصلة الرحم وحسن الجوار والكف عن المحارم والدماء ونهانا عن الفواحش وقول الزور وأكل مال اليتيم.

كان ظهور الإسلام أعظم حدث في تاريخ العرب، وبداية تحول خطير في حياتهم الدينية والاجتماعية والسياسية والفكرية، وكان له أكبر الأثر في حياتهم حيث أدّي إلي تغيير تام في معالم هذه الحياة، وتبدل في مقاييسها ونُظُمها ومرافقها، كما بدّل من نفسية العربي وشخصيته ونمط تفكيره.

علي الصعيد الديني : قضي الإسلام علي الوثنية وقرر التوحيد المطلق للّه في الذات والصفات والتوجه له بالعبادة وحده، جاء في

القرآن : وإلهُكُمْ إلهٌ واحِدٌ لا إلهَ إلاّ هُوَ الرَّحمنُ الرَّحيمُ أفاد المؤمن من عقيدة التوحيد الاستقلال والحرية، فليس لأحدٍ عليه سلطان وصفتي الأنفة والعفّة، من اعتقاده أن لا رزاق إلاّ اللّه والشجاعة وعدم هيبة الموت؛ لانَ الذي يملكه هو اللّه وحده وبذلك ارتفع إلي العزّة والإباء والاستشهاد في سبيل الحق.

وحارب الشرك باللّه ؛ لأنّه وليد الجهل والوهم «وَمَنْ يُشْرِكْ باللّه فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً بَعِيداً كما دعا إلي ان وراء هذه الحياة حياة أخري، يحاسب فيها كلّ انسان علي ما أتي من خير أو شر، فالإنسان يعزّ عليه أن لا ينال الخير أجره، وان لا يلقي الشر جزاءه، والإعتقاد بوجود إله عادل يستتبع حتماً جزاء علي الخير والشر، فان لم يتم العدل في عالم الأرض فلابدّ أن يتم هناك في عالم آخر «أفَحَسِبْتُم أنّما خَلَقْناكُم عَبَثاً وأنَّكُم إلينا لا تُرْجَعُون » و«للّه ما في السَّمواتِ وما في الأرْضِ، وإنْ تُبْدُوا ما في أنْفُسِكُم أو تُخْفُوهُ يُحاسِبْكُم بهِ اللّه ، فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشاءُ وَيُعذّبُ مَنْ يَشاءُ، واللّه علي كُلِّ شيءٍ قَدِيرٌ ».

والايمان بالملائكة يوجب الاعتقاد بأنّ للانسان حياة روحية، وأنّه يجب عليه تنشيط هذه الحياة، والاستجابة لعوامل الخير التي أودعها اللّه فيه، والغرض من ذلك التسامي بالانسان والرقي به الي أعلي درجات الكمال لهذا جعل الاسلام والايمان بالملائكة ركيزة من ركائز الدين قال تعالي:«آمَنَ الرّسُولُ بما أُنْزِلَ اليهِ مِن ربِّه والمؤمنُونَ، كُلٌّ آمنَ باللّه وملائكتِهِ وكُتُبِهِ ورُسُلِهِ ».

كما أوجب الإيمان بالقرآن وبما سبقه من الكتب التي أنزلت علي رسُل الأُمم الماضية في صورتها الحقيقية، والاعتقاد ببعثة الرسل وتصديقهم، ووجوب الاقتداء بهم في سيرهم وهي ميزة اختص بها الإسلام؛ وأراد بها التوفيق بينه وبين غيره من الأديان، ووضع أساساً للتعارف والإخاء والوحدة بين شعوب الأرض، والاعتقاد بخاتم هؤلاء الرسل محمّد صلي الله عليه وآله وسلم وان رسالته الي الناس كافة والي جميع شعوب الارض «قُلْ يا أيُّها الناسُ إنّي رَسُولُ اللّه إليكُم جَميعاً » وجعلها اللّه خاتمة جميع الرسالات السابقة، وناسخة لما تقدم منها، ومكملة ومتممة للاديان السابقة «اليومَ أكملتُ لكم دينكُمْ وأتْمَمْتُ عليكُم نِعْمَتي ورَضِيتُ لكُمُ الإسلامَ دِيناً ».

وفرض الإسلام علي معتنقيه عبادات جديدة ربطت بين قلوبهم ووحَّدت صفوفهم، كالصلاة والصيام والزكاة والحجّ فالصلاة هي التي تمد الجماعة الانسانية بالقوي الروحية التي لابدّ منها لصلاح المجتمع، وتخلق في الإنسان عقيدة اطاعة أوامر اللّه وتدعوه إلي التماس العون من اللّه اضافة إلي وقوف المسلمين دون فارق أو تمييز يؤدون حركات واحدة ويبتهلون ابتهالات واحدة متجهين إلي قبلة واحدة.

وفي رمضان يؤدي المسلمون فريضة الصوم بما فيها من صفاء للنفوس وتطهير للقلوب، فهي طريقة عملية لتربية الرحمة في النفس وتقوية الإرادة، وعلاج نافع لكثير من الأمراض النفسية

والإجتماعية بالإضافة إلي ما فيه من الفوائد الصحية ويؤدون الزكاة التي تجعل للفقير حقاً معلوماً في أموال الأغنياء؛ ليكون ضماناً اجتماعياً ثمرته حفظ التوازن بين طبقات الأمة.

وفي الحج يجتمع المسلمون من كل حدب وصوب في بيت اللّه تأكيداً علي عمق إيمانهم ورسوخ عقيدتهم،وسعياً للرحمة والغفران والحج مؤتمر عام لتوحيد غايات المسلمين وتوجيههم إلي مصادر الحياة الصحيحة بما يقتبسه بعض شعوبهم من ثقافات البعض الآخر، ووسيلة لتحقيق الفوائد الروحية والأدبية والاجتماعية والاقتصادية.

وقرر الإسلام ان لا قيمة لإنسان إلاّ بما يعمله، وان الإيمان المصحوب بالعمل الصالح وسيلة إلي النعيم الدنيوي«من عَمِلَ صالحاً من ذَكَرٍ أو أنْثي وَهُوَ مُؤمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حياةً طيّبةً ولَنَجْزِيَنّهُم أجْرَهُم بأحْسَنِ ما كانُوا يَعْمَلُونَ»كما ان ليس خير الناس أكثرهم مالاً ولا أعزّهم نفراً «إنَّ أكرمَكُم عِنْدَ اللّه أتْقاكُم» وكان لهذه العقائد والتعاليم الجديدة أثرها الواضح في رفع المستوي العقلي للعرب، فتغيرت قيمة الاشياء والاخلاق في نظر العرب، فارتفعت قيمة أشياء وانخفضت قيم أخري، وأصبحت مقومات الحياة في نظرهم غيرها بالأمس.

علي الصعيد الفكري والنفسي :

حارب الإسلام كثيراً من الخرافات والاوهام كالعرافة والقيافة والكهانة والزجر والصدي والهامة والرَّتَم والتعشير وما إلي ذلك ودعا

النّاس إلي التفكير المنطقي والتأمل العقلي وطلب العلم والمعرفة، فحرّك العقول،وفتح الأذهان علي أمور كان من شأنها أن بدّلت في المعادلة العقلية عند العرب وغيرت نفسيتهم، فقد أُتيح للعقل في الإسلام مجال واسع للنظر في سرّ الوجود وإدراك حقيقته وماهيته، وقد نصّت آيات كثيرة علي تأمل خلق السموات والأرض وما بينهما من كواكب وأفلاك وجبال وبحار وحيوان وطير وحشرات، ودعت الإنسان ليتفكر في تعاقب اللّيل والنهار والشمس والقمر. قال تعالي:«أولَمْ يَنْظُرُوا في مَلَكُوتِ السَموات والأرْضِ، وَما خَلقَ اللّه مِنْ شيءٍ وأنْ عَسي أنْ يكُونَ قَد اقْتَرَبَ أجَلُهُمْ فبأيّ حديث بَعْدَهُ يُؤمِنُونَ »وقوله تعالي: «وآيةٌ لَهُمُ اللّيلُ نَسْلَخُ منه النهارَ فإذا هُمْ مُظلِمُونَ * والشَّمْسُ تجري لِمُسْتَقَرٍّ لَها، ذلكَ تقديرُ العَزِيزِ العَليم * والقَمَرَ قَدَّرناهُ منازِلَ حَتّي عادَ كَالعُرْجُون القديمِ * لا الشَّمسُ يَنبغي لها أن تُدْرِكَ القَمَرَ ولا اللّيلُ سابِقُ النّهارِ وكُلٌّ في فَلَكٍ يَسْبَحُونَ » وقوله تعالي : «فليَنْظُرِ الإنسانُ مِمَّ خُلِق ».

كما حث علي تحكيم العقل في كل ما يعرض للإنسان من أمر، وقد ذكر القرآن العقل باسمه وأفعاله زهاء خمسين مرة، وذكر كلمة «أُولو الألباب » أي أصحاب العقول في بضع عشرة مرة، وذكر العلم في مواضع من آياته تناهز المائة وذكر مشتقاته أضعاف ذلك بين أن العقل نعمة كبري وأنّه لابد من استخدامه واللجوء إلي حكمه فيقول تعالي في تذييل كثير من الآيات القرآنية :«إنّ في ذلك لآياتٍ لقومٍ

يَعْقلُون » «ولقد بينا الآيات لقوم يعقلون » «أفلا تعقلون» فالقرآن رفع العقل مكاناً علياً، لأنّ العقل السليم هو الذي يرتضي الفضائل التي دعا اليها الإسلام، فمثلاً الوفاء بالعهد خلّة محمودة يحرص عليها فقط العقلاء الفضلاء، ونكث العهد رذيلة يأنفون منها؛ لانّها منقصة فنحن لا نعرف فضيلة وقد أمر الدين بها إلاّ وقد ارتضاها العقل السليم وأيدها، وهشّ لها الضمير الحي وسدّدها، وليس هناك رذيلة وقد نهي الدين عنها وبغضها إلاّ ورفضها العقل السليم وقبحها ونفر منها الضمير الحيّ وأنكرها.

والإسلام حضّ علي العلم؛ لأنّه يعلم أن الشخصية الإنسانية لا يقومها ولا يرقيها ويشحذ قواها إلاّ العلم، ومن هنا كان تفريقه بين العلماء وغيرهم قال سبحانه : «قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الذينَ يَعْلَمُونَ والذينَ لا يعلمُونَ إنّما يَتَذَكرُ أولُوا الألبابِ »، ولا ريب ان العلماء هم أكثر الناس فهماً لآلاء اللّه ووعياً لحكمة آياته وتمثلاً لبديع قدرته:«وتِلْكَ الأمثالُ نَضْرِبُها للنّاسِ وما يَعْقلُها إلاّ العالِمُونَ »وان لهم درجات عند ربّهم وميزات يخصهم بها «يرفَع اللّه الذينَ آمَنُوا مِنْكُم والذينَ أُوتُوا العِلْمَ دَرَجاتٍ »وقوله تعالي :«إنّما يَخْشي اللّه مِنْ عِبادِهِ العلماءُ ».

ومن ناحية أخري تري القرآن يسجل علي الذين لا يعلمون حكماً لا يرضاه ذو إدراك لنفسه:«كذلِكَ يَطْبَعُ اللّه علي قُلُوبِ الذينَ لا يَعْلَمُونَ ودعا إلي اقامة البرهان اليقيني القاطع علي كلّ شيء يراد أن يعرف حقيقته «قُلْ هاتُوا بُرْهانَكُم إن كُنْتُم صادِقِينَ » وعدم اللجاج

والجدل غير العلميين «ومِنَ الناسِ مَنْ يُجادِلُ في اللّه بغيرِ عِلْمٍ ولا هُديً ولا كِتابٍ مُنيرٍ ».

وأمر عباده المسلمين بأن يتقيدوا بالأسس العلمية ولا يتوهمون ويظنون كالدهريين والجاهليين «ولا تَقْفُ ما ليسَ لَكَ بهِ عِلْمٌ، إنَّ السَّمْعَ والبَصَرَ والفُؤادَ كُلُّ أولئِكَ كانَ عَنْهُ مَسئُولاً»؛ لانّ الظنون والأوهام هما السبب في تضليل النّاس وإفساد معتقداتهم : «وإنْ تُطع أكثرَ مَنْ في الأرضِ يُضِلُّوكَ عن سبيلِ اللّه إنْ يَتَّبِعُون الاّ الظَّنَّ وإنْ هُمْ إلاّ يَخْرُصُونَ » وحارب بكل قوة ذلك الإنسياق الأعمي، وشدّد النكير علي الذين كانوا يتمسكون بالرأي، لا لانّهم عقلوه، لكن لأنّ آباءهم فعلوه : «وإذا قيلَ لَهُم : تَعالَوا إلي ما أنْزَلَ اللّه وإلَي الرَّسُول، قَالُوا حَسْبُنا ما وَجَدْنا عليه آباءَنا، أولَوْ كانَ آباؤُهُمْ لا يعلَمُونَ شيئاً ولا يَهْتَدُونَ ».

ونهي أيضاً عن التقيّد بوجهة نظر واحدة، وذلك بدعوته للأخذ بالأحسن، وهي نزعة جديدة في الإخلاص للحقائق لم تتجلّ علي أكمل حالاتها الاّ لدي مفكري القرن التاسع عشر الذين أدركوا : أن الحقائق المطلقة لا يمكن أن تكون وقفاً علي فلسفة مقررة محدودة بل يجب عليهم أن يأخذوا بأحسن ما يجدونه من جميع الفلسفات، وان اسلوباً واحداً من البحث لا يصحّ أن يحتكر أحسن طرق الوصول اليها.

وهذا المبدأ هو الذي دعت إليه الحكمة القرآنية منذ أربعة عشر قرناً في قوله تعالي:«الذينَ يَستَمِعُونَ القَولَ فَيَتّبِعُونَ أحْسَنَهُ أولئِكَ الذينَ هَداهُمُ اللّه وأولئِكَ هُمُ أُولُو الألبابِ » وهو في ذلك يركز علي الاجتهاد ويرفض الجمود ويطلب البحث عن البرهان وقبول الدليل وتغيير الرأي دون حرج متي يتبين أن غيره أصحّ منه.

وجعل من أهملوا استخدام عقولهم في الدنيا «كالانعامِ بَلْ هُمْ أضلُّ سَبِيلاً » ولذا يقول في الآخرة بعضهم لبعض «لَوْ كُنّا نَسْمَعُ أو نَعْقِلُ ما كُنّا في أصحابِ السَّعيرِ » وأعدّ للعلماء ميزات خاصة ومنزلة لا تضاهيها الاّ منزلة المؤمنين «يرفَعِ اللّه الذينَ آمَنُوا مِنْكُم والذينَ أُوتُوا العِلْمَ دَرَجاتٍ ».

كما ان اللّه اعتد بشهادة أهل العلم علي وحدانيته فقال : «شَهِدَ اللّه أنّهُ لا إله إلاّ هُوَ والملائِكَةُ وأُولُو العِلْمِ قائماً بالقِسْطِ » كما جعل الإسلام قداسة العلم مضارعة لقداسة العبادة؛ لانّه يعتبر العلم في ذاته من أسمي العبادة وكذلك جعل مداد العلم يوازي دم الشهادة وكذلك فرّق الإسلام بين المعارف الجوهرية والمعارف غير الجوهرية التي ليس لها قيمة إلاّ ان تكون للزينة فقط، ودعا إلي نبذ لغو الحديث الذي يضل الناس بغير علم كما بين الإمام أمير المؤمنين عليّ عليه السلام فضائله حيث قال : «ان العلم ذو فضائل كثيرة فرأسه التواضع، وعينه البراءة من الحسد، وأُذنه الفهم،ولسانه الصدق، وقلبه حسن النية، وعقله معرفة الأشياء والأُمور، ويده الرّحمة، ورجله زيارة

العلماء، وهمته السلامة، وحكمته التورع، ومستقره النجاة، وقائده العافية، ومركبه الوفاء، وسلاحه لين الكلمة، وسبقه الرضا، وماله الأدب، وذخيرته اجتناب الذنوب، وزاده المعروف، وماؤه الموادة، ودليله الهدي، ورفيقه محبة الأخيار».

ويقول محبة العلم دين يدان به يكسب الإنسان الطاعة في حياته وجميل الاحدوثة بعد وفاته فكان في التعليم ما يحث علي العطف والتحاب والتعاون والتآخي والرحمة،فاكتسبوا الرقّة في القلوب واطّرحوا خشونتهم وتركوا العنجهية والفخر الجاهليين.

علي الصعيد الخلقي :

كان هناك للعرب بعض الصفات الخلقية كالكرم والشجاعة، والتضحية واباء الضيم وحماية الجار وغيرها،الاّ أنّها باتت تضعف وتتغير معاييرها الأساسية عندما تغلبت العصبية والتناحر فيما بينهم، وما نتج عنه من سلب ونهب واغارة وابتزاز؛ وذلك لظروفهم الاقتصادية وخضوع حياتهم لناموس تنازع البقاء.

لقد وضع الدين الجديد معطيات جديدة وأسساً متكاملة؛ حيث وضع للأخلاق مثلاً عليا تخالف الجاهلية، فكان من أهم أهدافه التأكيد علي المبادئ الاخلاقية التي تحلي بها العرب قبل الإسلام بشرط أن تكون حميً للعقيدة وحصناً للحق،وظهيراً للخير، ووسيلة إلي نصرة

المظلوم، ونجدة المهضوم، وإنصاف الضعفاء، ونفع الناس، ولا يرتضي أن تتخذ وسائل للعدوان، أو مظاهر للاستعلاء، أو دعائم للإفساد في الارض وإذلال الضعفاء.

فمثلاً كان الكرم خلقاً فاضلاً في الحياة الجاهلية، طالما باهي به المفتخرون وأشاد به المادحون، وكان البخل رذيلة طالما هجا بها الشعراء، وبرئ منها الاسخياء، ولكن كرم العرب في الجاهلية كان من املاء البيئة وكان وسيلة من وسائل الفخار والكلف بحسن الاحدوثة.

أمّا الكرم الذي دعا إليه الإسلام فإنّه كان مظهراً لسخاء النفس وكرم اليد ورحمة القلب وابتغاء ثواب اللّه ، ومبعثه أن المال مال اللّه ، وأن صاحبه خليفة عليه موقوت، لابدّ أن يتركه لسواه، وأن هذا المال ليس حقاً لمالكه وحده، بل له شركاء فيه من الفقراء والمساكين وغيرهم، وغاية هذا الكرم ليست أبهة أو مباهاة أو سيادة او عطفاً مشوباً برياء، بل القربي إلي اللّه والشوق إلي ثوابه. ولهذا حضّ الإسلام علي البذل، وآثر أن يكون بعض البذل في خفاء.

وكانت الشجاعة في الجاهلية وسيلة لعدوان الاقوياء علي الضعفاء، وطالما خايل العرب بقوتهم وبغلبتهم علي غيرهم، وبعدوان القادرين علي من هم أقل منهم مقدرة. فلما جاء الإسلام وجّه الشجاعة إلي نصرة الحق وحماية الدين، ونجدة المظلومين المضطهدين، فارتفع بدلالتها عن العدوان إلي الجهاد.

ومن الفضائل التي أراد بها الإسلام إحكام ما بين الإنسان والخلق، وإحكام ما بين الإنسان وخالقه، هي التقوي والتي جعلها المحور لكل الصفات الخيّرة، والفضيلة التي تدور الفضائل كلها في ملكها الرحيب، ولهذا وصف اللّه المتقين بأنّهم الذين تحلوا بالفضائل الإنسانية الحقّة : «ليسَ البِرَّ أن تُوَلُّوا وُجُوهَكُم قِبَلَ المَشْرِقِ والمَغْرِبِ، ولكنَّ البِرَّ من آمنَ باللّه واليومِ الآخرِ، والملائكةِ والكتابِ والنبيينَ، وآتي المالَ علي حُبّهِ ذَوي القُربي واليتامَي والمساكينَ وابنَ السَّبيلِ والسائلينَ وفي الرِّقابِ، وأقامَ الصلاة وآتي الزكاة، والمُوفُونَ بِعَهْدِهِم إذا عاهدُوا، والصابرينَ في البأساءِ والضّراءِ وحينَ البأسِ، أولئكَ الذينَ صَدَقُوا وأولئكَ هُمُ المُتّقُونَ ».

ولا تقتصر التقوي في القرآن علي هذه الصفات، بل يضاف إليها الصفات التالية : فالعدل من التقوي. قال اللّه تعالي : «اعدِلُوا هُوَ أقَربُ للتقوي »والعفو من التقي أيضاً، قال اللّه تعالي : «وأنْ تَعْفُوا أقربُ للتقوي »والصدق في قوله تعالي : «يا أيُّها الذينَ آمنُوا اتقُوا اللّه وكُونُوا معَ الصادقينَ » والأمانة فرع من التقوي، قال تعالي : «فليؤد الذي اؤتمن أمانته، وليتق اللّه ربّه ».

وإصلاح ذات البين مرتبط بها في قوله تعالي : «فاتّقُوا اللّه واصلحُوا ذاتَ بينكم » والكسب الحلال متصل بها في قوله تعالي : «يا أيُّها الذين آمنُوا اتّقُوا اللّه َ، وذَرُوا ما بَقيَ مِنَ الرِّبا » وهكذا عشرات الخصال الحميدة إنّما هي وليدة التقوي وما من شك في انّ الذي يتقي

ربه يحبه ويطيعه ويعمل ما يستحق عليه ثوابه، ويكف عما ينزل به عقابه، فيحيا في طهارة نفس، وصلاح عمل، وثراء من الخير والحق، وينفر من كل شر، ويتجافي عن كل رذيلة ونقيصة ولن يكون التقي إلاّ كريماً شجاعاً عادلاً أميناً عفيفاً صادقاً وفياً رحيماً غيوراً متحلياً بكل فضيلة، مبرأ من الجبن والبخل والفجور والغدر والكذب ومن كل رذيلة.

كما دعا الإسلام إلي الإستقامة «فاستَقِمْ كما أُمِرْتَ » واصلاح النفس «فَمَن تابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وأصلَحَ فإنَّ اللّه يتُوبُ عليهِ... » وتزكيتها «قد أفلحَ مَنْ تَزكّي » وإلي الإصلاح بين الناس «إنّما المؤمِنُونَ إخْوَةٌ فأصلِحُوا بينَ أخَوَيْكُمْ » والدعوة إلي الخير «ولتَكُنْ مِنْكُم أمّةٌ يَدْعُونَ إلي الخَيْرِ وَيَأمُرُونَ بالمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ المُنْكرِ، وأولئكَ هُمَ المُفْلِحُون » وإلي الكلام الحسن «وقُل لِعبادي يَقُولُوا التي هيَ أحْسَنُ... » والصفح الجميل «ادْفَعْ بالتي هِيَ أحْسَن » وطيب الكلام «مَنْ كانَ يُرِيدُ العِزَّةَ فلِلّه العزة جميعاً، إليه يَصْعَدُ الكَلِم الطّيّبُ والعَمَلُ الصّالِحُ يَرْفَعُهُ... » والتعاون «وتعاوَنُوا علي البرِّ والتقوي، ولا تعاوَنُوا علي الإثْمِ والعُدْوانِ... » والامانة «إنّ اللّه يَأمُرُكُم أنْ تُؤَدُّوا الأماناتِ إلي أهْلِها » والتواضع «واخفِضْ جَنَاحَكَ للمؤمنينَ » والإحسان «واحْسِنْ كَما أحْسَنَ اللّه إليك » والتنافس علي كل القيم الخلقية والفضائل الإسلامية «وفي ذلِكَ فليتنافَسِ المُتَنافِسُونَ ».

لقد بني الإسلام صرحاً متيناً من معالي الاخلاق والمثل العليا كان له أثر بارز في بناء صرح حضارة عريقة، ولها الدور الكبير في صياغة شخصية الإنسان المسلم العربي، وقد تجسد كل ذلك تجسيداً حيّاً لكل تلك القيم والمثل الحقّة في الرسول الكريم صلي الله عليه و آله وسلم ومن بعده الائمة المعصومين الأبرار، فكانوا ثروة هائلة من الفضائل والقيم العليا، وقمة سامية من مكارم الأخلاق؛ حيث تحول المجتمع الجاهلي من خلالهم إلي مجتمع حضاري، وبني جيلاً مؤمناً رسالياً من الأبطال والقادة الذين امتلكوا زمام الإنبعاث والبناء والتحرر، فكانوا عماد القوة الكبري التي اندفعت في الأرض ترفع راية الإسلام، وتعلن اسمه وتمدّ نفوذه من حدود الصين إلي حدود فرنسا، وتنشر تلك الروح في نفوس شعوب البلدان المفتوحة.

علي الصعيد الاجتماعي :

حطّم الإسلام رابطة المجتمع القبلي القائمة علي الدم والنسب، وأحلّ محلّها رابطة الإيمان والإشتراك في الدين الواحد، كما جعل المسلمين سواسية فأكرمهم عند اللّه أتقاهم ولقد اعتني الإسلام في بناء المجتمع وتنظيمه، فوضع له القواعد المحكمة التي توطّد الصلة بين أفراده علي أساس من المودة والرحمة والتعاون كما اهتم الإسلام بالدعامة الاولي للمجتمع وهي الاسرة التي من شأنها أن تؤدي إلي صلاح البناء كله، أي المجتمع بأسره.

وبعد تنظيم هذه الدائرة الضيقة انتقل الإسلام إلي تنظيم دائرة أوسع، وهي دائرة الاقارب وذوي الأرحام، يهدف من وراء ذلك إلي أن يكون الذين يمت بعضهم إلي بعض بأواصر الأبوة أو الأخوة أو المصاهرة، متعاونين متواسين متضامنين فيما بينهم، علي أساس من البر والاحسان والتعاطف والمودة وبعد دائرة القرابة نظم الإسلام آصرة الجوار علي صورة واسعة، فجعل للجار حقوقاً كثيرة، وأوصي بمراعاة حرمة الجوار.

وبعد هذه الدوائر المتقاربة تجيء دائرة العلاقات الكبري التي تجمع الامة كلها، وقد أحكم الإسلام تنظيمها في القرآن والحديث، ووضع لها مجموعة من القواعد الاخلاقية السامية التي يؤدي اتباعها الي صلاح أحوال المجتمع ونهضته ورفعته.

فأسس مجتمع توثقت فيه الروابط، وحدّدت فيه الحقوق والواجبات، ووضع الاسلام له دستوراً عاماً للعبادات والمعاملات والجنايات والأحوال الشخصية وأقام اهدافاً علياً لصيانة المجتمع الاسلامي، وهي ثابتة لا تتغير ولا تتطور، تحافظ علي نسل الإنسان (بفرض حدّ الزني)، وعلي العقل (في حدّ شارب الخمر)، وعلي الكرامة الإنسانية (في حدّ القذف)،وعلي نفس الإنسان (في عقوبة قتل العمد)، وعلي الملكية الفردية (في حدّ السرقة) وعلي الدين (في حدّ المرتد)، وعلي الأمن (في حدّ قطّاع الطرق)، وعلي الدولة (في حدّ أهل البغي).

وشرّع كثيراً من الشرائع الاجتماعية التي تزيد في وحدة المجتمع الاسلامي وقوته، كالزكاة والصدقة والاحسان وصلاة الجماعة والحجّ، وحرم الاعتداء علي أموال الناس وأعراضهم ودمائهم وحرياتهم، وحارب الرذائل الاجتماعية والعادات الفاسدة والخرافات الكاذبة، وعصبية الجاهلية، واستبدل بها دعوة الدين.

وعالج حرية المرأة وفق روحه الدينية بقصد صيانتها ورفع شأنها عن ذي قبل،وأعاد لها كرامتها وصحح النظرة اليها، حاسماً كل جدل وكل تساؤل،معتبراً أن المرأة كائن انساني له روح انسانية كالرجل سواء بسواء، وأنّها نواة البشرية «يا أيُّها الناسُ اتّقُوا رَبَّكُم الذي خَلَقَكُم مِن نَفسٍ واحِدةٍ وَخَلَقَ مِنْها زَوْجَها وَبَثَّ مِنْهُما رِجالاً كَثِيراً وَنِساءً » كما أعلن الرسول الكريم إنسانية المرأة بكلمة موجزة :«النساء شقائق الرجال» أي نظائرهم وأمثالهم في الخلق والطبائع كأنهنّ شققن منهم.

وعلي ضوء ذلك أعطي الاسلام المرأة حقاً كاملاً غير مقيد بغير ما حرم اللّه ورسوله في جميع التصرفات المدنية والاقتصادية والشخصية، فلها الحق والأهلية لحيازة المال مهما عظم مقداره، ولها حق الإرث والهبة والوظيفة والدين وتملك العقار والكسب والتجارة والتقاضي والمصالحة والتصرف فيما تحوز وتملك من مال أياً كان نوعه، اتفاقاً وبيعاً وعتقاً وهبة ووصية «لِلرِّجالِ نَصِيبٌ ممّا اكْتَسَبُوا، ولِلنِّساءِ نَصِيبٌ مِمّا اكْتَسَبْنَ ».

كما نص القرآن الكريم نصاً صريحاً علي حق المرأة في اختيار شريك حياتها كزوج، ومساواتها له في الحقوق والواجبات وحقّها في الطلاق متي توافرت ظروفه، كما أعطاها الدين الاسلامي حق التعليم وطلبه والسعي لتحصيله، مثلها في ذلك مثل الرجل وذلك في قوله تعالي : «يَرْفَعِ اللّه الذينَ آمَنُوا مِنْكُم والذينَ أوتُوا العِلم دَرَجاتٍ » كما حث القرآن الكريم المرأة والرجل علي العمل، ولم يفرق بينهما،كل وما يخصه وحسب مقدرته وذلك في قوله تعالي: «وقل اعملوا فَسَيَرَي اللّه عَمَلَكُم وَرَسُولَهُ والمُؤْمِنُونَ » فخصص الرجل بمسئوليات فردية تثقل كاهله كالانفاق علي المرأة ورعايتها والدفاع عنها، وترك لها إدارة شئون البيت وتربية الاطفال وغير ذلك من ضرورات الحياة.

فرفع الاسلام من مستوي المرأة، ووهبها من القوة والنشاط ما هيأها لتسير نحو المثل العليا، وتكون في طليعة المربيات الناجحات في الحياة، مرتكزة في ذلك علي دينها القويم وإيمانها العظيم كما حثها علي طلب العلم والمعرفة ونظم الامور.

ودعا إلي تحرير الرقيق وحذر من إساءة معاملتهم، وفتح أبواباً كثيرة لتحريرهم، فكثر العتق واستقامت معاملة الرقيق في رفق الإسلام ورحمته، وقد أعطي مثلاً عملياً الرسول الأمين عليه السلام حين آخي بين عمّه حمزة وزيد مولاه، وحين زوج زيداً ابنة عمته زينب.

واعتبر الإسلام وحدة الجنس أساس الوحدة الإنسانية، فلم يعرف مجتمع الإسلام مفهوم العنصرية والقومية، بل صهر الاسلام ذلك كله وأقام منهجه الخالص، فارتقي الفرد وانتظمت شئون الأسرة، وأسست الجماعة علي قواعد صالحة تتضمن بقاءها ورقيها، وأقيم مجتمع ذو دعائم متينة من الحب والإخاء والمساواة والتكافل الاجتماعي والرحمة والبر، حتي لكأنّهم أسرة واحدة محيت بين أفرادها كل الفوارق القبلية والجنسية، وفوارق الشرف والسيادة الجاهلية.

علي الصعيد الإقتصادي :

ارتكز النظام الإقتصادي في الاسلام علي أصلين أساسين :

الأوّل : هو الاعتراف بمواهب الفرد وحقّه المقدس في ثمار عمله وكفاحه،والسماح له بحرية ضمن اطار القيم المعنوية والخلقية التي يؤمن بها الاسلام، ولم يكن ذلك التحديد تحديداً للحرية في الحقيقة، وإنّما هو عملية انشاء للمحتوي الداخلي للانسان الحر انشاءًا معنوياً صالحاً، حيث تؤدي تلك الحرية في ظله رسالتها الصحيحة.

فكان دوره الإيجابي الفعال في ضمانأاعمال البر والخير التي تتمثل في اقدام المسلمين بكامل حريتهم المتبلورة في اطار ذلك التحديد علي دفع الزكاة وغيرها من حقوق اللّه ، والمساهمة في تحقيق مفاهيم الإسلام في العدل الاجتماعي.

الثاني : تقرير حق المجتمع في كسب الفرد، ووجوب التضامن والتكافل الاجتماعي بين ابناء الامة، فوضعت الشريعة مبدأ اشراف ولي الأمر علي النشاط العام، وتدخل الدولة لحماية المصالح العامة وحراستها كما كفلت الشريعة في مصادرها العامة، النص علي منع ممارسة مجموعة من الأنشطة الاقتصادية والاجتماعية المعيقة عن تحقيق المثل والقيم التي يتبناها الإسلام، كالربا والاحتكار وغير ذلك.

ومن المزج بين هذين الاصلين خرج الاسلام علي الناس بنظام خاص به يسمو علي كل الأنظمة التي سبقته والأنظمة التي تلته وبهذا النظام الاجتماعي والاقتصادي السليم الحكيم يتم دعم نظام الحكم في الاسلام، ويمكنه في يسر من تحقيق أهدافه وتثبيت أركانه وأدي هذا كله إلي استقرار أحوال الدول في ظل الحرية والاخاء والمساواة والعدالة الاجتماعية.

ومن تلك الأهداف التي توجب علي الدولة تحقيقها : العمل علي انشاء المشاريع العمرانية،وانتهاج مختلف الوسائل الموصلة إلي ذلك الغرض، وتوفير أسباب المعيشة والحياة الحرة الكريمة للناس، وتنمية موارد الثروة في البلاد والبحث عن الوسائل التي تحقق إنجاز ذلك.

وعلي الرغم من أنّ غالبية العرب في الجزيرة العربية اعتمدوا في حياتهم علي تربية المواشي والأغنام والتجارة في عهد النبي صلي الله عليه وآله وسلم ، ورغم أنّ المسلمين كانوا منهمكين في تعلم

مبادئ الدين وفي توطيد الاسلام في نواحي الجزيرة وفي الدفاع عن حياتهم وعقيدتهم، فانّهم لم يهملوا زراعتهم، وكان الرسول صلي الله عليه و آله وسلم يشجع الزراعة ويقطع الاراضي غير المزروعة لمن يتعهدها بالري والاستثمار، ويدعو إلي إحياء الموات وهو ما يعرف حديثاً بالاصلاح الزراعي.

علي الصعيد الثقافي والأدبي :

كان العرب حتي ظهور الاسلام شعباً شبه منعزل، لم تتح له الفرصة الكافية في الاختلاط بالشعوب المتمدنة، فظل متشبثاً بتقاليده وأفكاره، محافظاً علي لغته التي تعتبر مظهر حياته العقلية ومرآة آدابه، ودليل أخلاقه.

ولم يكن هناك علمٌ منظم، ولا علماء يدونون قواعده، ولا دين واحد يجمعهم تحت لوائه؛ بل كانوا طوائف مبعثرة، متنافسة، متناحرة فميا بينها، يسودها الجهل والامية والفقر والامراض، فكان ظهور الاسلام في ذلك الحين نتيجة محتومة، ونقضاً صريحاً لتلك الحياة.

وحيث أن الفصاحة والبيان أمدّ سبباً إلي النفوس، لذا فقد جذبهم القرآن ببلاغته وسحر بيانه واعجازه وأحكام أساليبه، فقادهم من ألسنتهم لأنّها مفاتيح أرواحهم وأخذ الفكر الجديد يشق لنفسه طريقاً جديداً فيصبح هو الناطق للدعوة الجديدة توّجت بانتصاراتها وبنشر فكرها في تطهير العقيدة وبناء المجتمع بصيغة جديدة وفق

قواعده، فتمكن من صهر الصراعات وغليان الصدور والعصبية في بوتقة الجهاد، فانعقدت قلوبهم عليه، واستقاموا لدعوته.

كما أكد علي المبادئ الأخلاقية التي تحلي بها العرب قبل الإسلام كما ذكرناها مفصلاً فكان لها أثر واضح لتلك الروح التي تحملت الصبر في مجال حمل الدعوة ونشرها في نفوس شعوب البلدان المفتوحة وبذلك انتقل الشعر والنثر من طور إلي طور بعد أن كان تعبيراً عن اهواء النفوس ونوازع الأثرة والعنف والانتقام، والشجاعة الطائشة، والتباهي بالظلم، أصبح ناشراً للمبادئ فالشاعر الذي كان يستلهم شيطانه قصائد المفاخرة والمنافرة والهجاء، والخطيب الذي يستقطر من لسانه سموم العداوة والبغضاء، وقفوا صامتين منصتين لدعوة الإسلام لا يقولون ولا يفعلون إلاّ ما يأمر به اللّه أو يقرّه الرسول، وأصبح القرآن والحديث دستور الامّة، يسنّان الشرائع، ويرسمان الآداب، ويهذبان الاخلاق، فتخرّج رجال من جامعة الإسلام كانوا قمّة في الايمان واليقين وعلو النفس وصفاء الطبع ورقّة الجانب وبسط الجناح، فكانوا مثالاً للخَلَق الإنساني الرفيع.

كما اتصل العرب المسلمون بالأمم الاجنبية، حتي أصبح اختلاطاً، ثم امتزاجاً، فنشأ عنه أن اطّلع العرب علي ما كان لهذه الأمم من آراء وأفكار وديانات وعلوم وفلسفات، ونشأ عن ذلك كله أن تغيرت الحياة، وتغيرت موضوعات التفكير، واستلزم ذلك أن تتغير العبارة التي كانوا يعبّرون بها عمّا في أنفسهم، فنشأ لهم لسان جديد

لم يكن لهم من قبل وهو النثر الذي يعبر عن المعاني بدون القيود الشعرية.

علي الصعيد السياسي :

قامت دعوة الاسلام علي أساس تنظيم الشئون الدينية والدنيوية للبشر عامة، فالإسلام دين ودولة، وعقيدة وشريعة والعقيدة : هي الجانب النظري في الاسلام الذي يطلب الايمان به أوّلاً وقبل كل شيء، وقد تضافرت النصوص القرآنية الواضحة علي تقريرها، وهي أوّل ما دعا إليه الرسول، وقد أجمع المسلمون عليها كالايمان باللّه وحده لا شريك له، والايمان بملائكته وكتبه ورسله وبالبعث والحساب، وهذه هي أركان العقيدة التي يقوم عليها البناء الروحي للدولة الاسلامية.

والشريعة : هي النظم التي شرعها اللّه أو شرع أصولها، ليأخذ الانسان بها نفسه وفي علاقته بربّه وسبيلها أداء الواجبات الدينية كالصلاة والصوم وعلاقته بأخيه وسبيلها تبادل المحبة والتناصر علي الدوام وعلاقته بالكون وسبيلها حرية البحث والنظر في الكائنات واستخدام آثارها في رقي الانسان وعلاقته بالحياة وسبيلها التمتع بالحلال من طيبات الحياة دون إسراف.

وقد عبّر القرآن في كثير من آياته عن العقيدة بالايمان، وعن الشريعة بالعمل الصالح كقوله تعالي : «ان الذين آمنوا وعملوا

الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نزلاً » ويلاحظ ان العقيدة هي الأصل والأساس الذي تبني عليه الشريعة، وعلي ذلك فانّ الشريعة تعتبر أثراً تستتبعه العقيدة بحيث لا تقوم الشريعة بدون العقيدة، فهما أمران متلازمان مترابطان بحيث لايصح اهدار احداهما والابقاء علي الآخر فالعقيدة أصل يدفع الي الشريعة، والشريعة تلبية واستجابة لانفعال القلب بالعقيدة.

فأوّل أساس ارتكز عليه نظام الحكم هو التوحيد، وهو أوّل ركن من العقائد الاسلامية ومعني التوحيد أن اللّه هو خالق الكون وما فيه، وله وحده الحكم والسلطان والامر والنهي «قل ان الأمر كلّه للّه ».

فلمّا كان الحكم للّه ، فليس لأحد وإن كان نبياً أن يأمر وينهي من غير أن يكون له سلطان من اللّه ، والنبي لا يتبع الاّ ما يوحي إليه، وما وجبت علي الناس طاعة النبي الاّ لانّه لا يأتيهم الاّ بالاحكام الالهية «وما أرسلنا من رسول الاّ ليطاع بإذن اللّه فاطاعة اللّه تتحقق بالعمل بالقرآن؛ لانّه هو الذي يحوي أوامر اللّه ونواهيه، وهو المصدر الأول من مصادر التشريع.

وأمر اللّه بطاعة الرسول؛ لانّه هو الذي يبيّن لنا أحكام الشرع ومقاصده، ففي القرآن والسنة أصول الدستور الاساسي الذي ينهض عليه صرح النظام الاسلامي والنظام الذي وضع الاسلام أصوله

يستلزم وجود دولة وذلك بقصد إمكان تطبيق أحكامه علي رأسها حاكم يتمتع بسلطة هدفها تحقيق مصلحة الأمة في مختلف نواحي الحياة.

فالاسلام لم يأت فقط بالعقيدة الدينية وحدها،ولا بالنظام الأخلاقي المثالي الذي يرتكز عليه المجتمع، وانّما أتانا بجانبي العقيدة والنظام الأخلاقي بشريعة محكمة عادلة تحكم الانسان في مختلف تصرفاته ومعاملاته، وذلك بالنسبة لنفسه وفي علاقته مع أسرته ومع مجتمعه الذي يعيش فيه ومع المجتمعات الأخري قال اللّه تعالي : «والعصر إنّ الانسان لفي خسر الاّ الذين آمنوا وعملوا الصّالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصّبر » أي أنّ الايمان الذي يحسب المسلم أنّه قد استكمله، والعمل الصالح الذي يقوم به كل مسلم ترجمة لهذا الايمان، لا يكفيان لانقاذ الانسانية من الخسران، انْ لم يقترن هذا الجهد الفردي بجهد جماعي، فيساهم المؤمن مع بقية الافراد والجماعات في التواصي بالحق، ولما كان تأييد ما يقتضيه الحق في المجتمع تعترضه عوائق وعراقيل وجب علي المؤمنين التواصي بالصبر علي كل ما يتطلبه الجهاد في سبيل الحق.

لذا بيّن الاسلام حقوق كل فرد نحو الآخرين، واقام نظام الاسرة علي قواعد واضحة، وبين علاقة الأسرة بالأمة، وعلاقة الحاكم بالأمّة عامة وبالأفراد خاصة ثمّ عرض لعلاقة الأمة بغيرها من الأمم في حالتي الحرب والسلم، وعرض للنظام الاقتصادي فوضع له أصولاً

حكيمة سليمة، وتناول كذلك النظام الاجتماعي فاقامه علي أساس الاعتراف بالقيم الخلقية، وازع الضمير أوّلاً، ثم تحكيم القانون ثانياً.

وإذا نشأت عقبات تحول دون تحقيق المجتمع لأهدافه وغاياته السامية، وحتي يمكن التخلص من هذه العقبات التي تعرقل سير المجتمع وتطوره وتقدمه، أوجب أن توجد سلطة زمنية تكون مهمتها تطبيق أحكام الشريعة الاسلامية، ولا تستطيع هذه السلطة الوفاء بهذه المهمة إلاّ اذا منحت حق الأمر والنهي في الجماعة بخصوص المسائل الاجتماعية لتنظيم علاقات الأفراد ببعضهم، هذه السلطة انما يراد بها الحكومة، وإذا وجدت هذه الحكومة تنشأ الدولة وتنسب إليها السلطة، ويقع علي عاتقها مهمة تصريف شئون الجماعة في الداخل والخارج مثل اقامة العدل، والمحافظة علي الامن في الداخل، والدفاع عن سلامة الدولة ضد الاعتداء الخارجي، كما أن هناك واجبات تتعلق بالعمل علي رفع مستوي الشعب من النواحي الاقتصادية والثقافية.

فكان لاقامة دولة اسلامية ضرورة لابد منها لإمكان تطبيق النظام الاسلامي، وانتهاج المجتمع في معيشته سبيل الحياة الاسلامية في صورتها التامة الكاملة النافعة المستوحاة من الشريعة المستمدة من كتاب اللّه وسنة رسوله، وفيهما بيان ناصع لما هو عدل وما هو ظلم في كل شئون الناس والحياة.

وعلي هذا الأساس تكوّن قانون للعرب سماوي عام مطلق أبدي خالد، أساسه العدل وهدفه خير البشر، جمع بين السلطتين الروحية والزمنية، فخلق الاسلام حكومة ووضع لها نظاماً ودستوراً كسب للعرب وحدتهم السياسية الكاملة بعد انْ كانت اطرافها تخضع لنفوذ الامم القوية المجاورة، فذهبت هذه التبعية الي غير رجعة، وصار العرب يخضعون لحاكم واحد هو رسول اللّه صلي الله عليه و آله وسلم يحكمهم بما أنزل اللّه ، فتجمعت الأهواء المتفرقة، وتآلفت القلوب المتنافرة، وكوّن من قبائل العرب امة لها وحدتها، وقفت فيما بعد في وجه اعظم امبراطوريتين في ذلك الزمان وقضت عليهما قضاءً نهائياً.

يقول الامام عليّ عليه السلام : «فانظروا إلي مواقع نعم اللّه عليهم حين بُعِثَ إليهم رَسُولاً، فعقدَ بملَتِهِ طاعتَهُم، وجمعَ علي دعوتِهِ ألفَتُهم : كيفَ نَشَرَتِ النِّعْمَةُ عليهم جناح كرامَتِها، وأسالَت لهم جداوِلِ نَعيمِها، والتَفّت الملّةُ بهم في عوائدِ بركتِها، فأصْبَحُوا في نِعْمَتِها غَرِقين، وفي خُضْرَةِ عَيْشِها فَكِهين قد تربَّعَتِ الامورُ بهم في ظلِّ سُلطانٍ قاهرٍ، وآوَتْهُمُ الحالُ إلي كَنَفِ عِزٍّ غالبٍ، وتعطّفتِ الامورُ عليهم في ذُرَي مُلْكٍ ثابت. فَهُم حُكّامٌ علي العالمين، ومُلُوكٌ في أطرافِ الأرَضين، يَمْلِكُون الأُمُور علي من كانَ يَمْلِكُها عليهم، وَيُمْضُونَ الأحكامَ فيمن كانَ يُمضِيها فيهم! لا تُغْمَزُ لَهُم قناةٌ، ولا تُقْرَعُ لهم صَفَاة».

أما سرّ خلود المبادئ الاسلامية فيكمن في :

١. عظمة تلك المبادئ : والتي تتلخص في العدالة التامة والتكامل الاجتماعي الحق والاخاء والمساواة، والامانة والحرية والاحسان وحسن المعاملة.

٢. مثالية الإسلام.

٣. حيوية الإسلام.

٤. روح الإسلام الثورية.

٥. دعوته إلي العمل.

٦. اهتمامه بالعلم والثقافة والمعرفة.

٧. ديمقراطية الاسلام.

٨. توفر العناصر الحضارية فيه، والتي تتمثل في عمله من أجل التقديم والنهوض واليقظة والتجديد، وفي إيجابه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ونشره لكل القيم النبيلة.

وختاماً :لقد كان الاسلام دستوراً كاملاً شاملاً لكل ما في الحياة، وهو يستجيب لكل ما يطرأ علي المجتمعات الانسانية من تطور، نظراً لمرونته واتساع آفاقه، فهو يتماشي مع الظروف والزمان والمكان.

والدستور الاسلامي فيه أصول العقيدة، وفيه القوانين، ويتضمّن فلسفة الحكم ومبادئ الاخلاق، كما أنه يشتمل علي أصول النظام الاقتصادي، وأسس العدالة الاجتماعية.

الباب السادس

أثر الفتح الاسلامى على مصر

الفتحُ الإسلاميُّ لِمِصر

الفَتْحُ الإسْلَامِيُّ لِمِصْر أو الغَزْوُ الإسْلَامِيُّ لِمِصْر، وفي بعض المصادر ذات الصبغة القوميّة خُصُوصًا يُعرفُ هذا الحدث باسم الفَتْحُ العَرَبِيُّ لِمِصْر، هو سِلسلةٌ من الحملات والمعارك العسكريّة التي خاضها المُسلمون تحت راية دولة الخِلافة الراشدة ضدّ الإمبراطوريّة البيزنطيّة، وانتُزعت على أثرها ولاية مصر الروميّة من يد الروم ودخلت في دولة الإسلام، بعد عِقدٍ من عودتها لِلإمبراطوريّة البيزنطيّة، إذ كان الفُرس الساسانيّون قد انتزعوها من الأخيرة لِفترةٍ وجيزة.

شكّل فتحُ مصر امتداداً لِفتح الشّام، وقد وقع بعد تخليص فلسطين من يد الروم، وقد اقترحهُ الصحابيّ عمرو بن العاص على الخليفة عُمر بن الخطّاب بِهدف تأمين الفُتوحات وحماية ظهر المُسلمين من هجمات الروم الذين انسحبوا من الشّام إلى مصر وتمركزوا فيها ولكنّ عُمرًا كان يخشى على الجُيوش الإسلاميّة من الدخول لِأفريقيا ووصفها بأنّها مُفرِّقة، فرفض في البداية، لكنّهُ ما لبث أن وافق، وأرسل لِعمرو بن العاص الإمدادات، فتوجّه الأخير بجيشه صوب مصر عبر الطريق الذي سلكه قبله قمبيز والإسكندر، مُجتازًا سيناء مارًا بِالعريش والفرما ثُمّ توجّه إلى بلبيس فحصن بابليون الذي كان أقوى حُصون مصر الروميّة، وما أن سقط حتّى تهاوت باقي

الحُصون في الدلتا والصعيد أمام الجُيوش الإسلاميّة وقد تمّ لعمرو بن العاص الاستيلاء على مصر بسقوط الإسكندريّة في يده سنة ٢١هـ المُوافقة لِسنة ٦٤٢م وعقد مع الروم مُعاهدة انسحبوا على أثرها من البلاد وانتهى العهد البيزنطي في مصر، وإلى حدٍ أبعد العهد الروماني، وبدأ العهد الإسلامي بِعصر الوُلاة؛ وكان عمرو بن العاص أوّل الولاة المُسلمين.

تختلف الروايات الإسلاميّة والقبطيّة في سرد حوادث الفتح، لكنّها تجمع على أنّ الروم استعبدوا المصريين أثناء حُكمهم وجعلوا مصر ضيعة للإمبراطور البيزنطي ومن قبله الروماني، وعُرفت بمخزن غلال روما وكان اختلاف عقيدة المصريين عن عقيدة الروم سببًا في اضطهادهم من قِبَل الإمبراطوريّة،فقد اتخذ البيزنطيّون المذهب الخلقدوني الذي ينص على اتحاد الطبيعتين، الإلهيّة والبشريّة، في شخص المسيح، اتحاداً غير قابل للانفصام، مذهباً رسميًّا للإمبراطوريّة دون غيره،بينما كان المصريّون يأخذون بالمذهب اللاخلقدوني المونوفيزيتي (اليعقوبي)، وقد حاول الروم فرض مذهبهم على جميع الرعايا،فنفر منهم المسيحيّين اليعاقبة، وفضّلوا الهيمنة الإسلاميّة كونها تضمن لهم حُريّة المُعتقد وإعتنقت الغالبيّة العُظمى من المصريين الإسلام بعد تمام الفتح، وبقي قسمٌ منهم على المسيحيّة، واستمرّ هؤلاء يُعرفون بالقِبط أو الأقباط، على الرُغم من أنّ هذه التسمية كانت تُطلق على المصريين عُموماً دون تمييزٍ بين مذاهبهم

وأديانهم، ومع مُرور الزمن استعرب المصريّون وأصبحت اللُغة العربيَّة لُغتهم الأُم، واقتصرت اللُغة القبطيّة على الطُقوس والتراتيل الكنسيَّة وقد قُدِّر لِمصر أن تحتلّ مركزًا بارزًا ورائدًا في ظل العُهود الإسلاميَّة اللاحقة، فأصبحت مركزًا أساسيًّا من مراكز الإسلام في العالم، كما تزعَّمت حركة القوميَّة العربيَّة في أواسط القرن العشرين الميلاديّ.

نُبوءة فتح مصر في المُعتقد الإسلامي

يُؤمن المُسلمون بأنّ الرسول مُحمّد تنبأ وبشّر بِفتح مصر قبل حُصول هذا الأمر بِسنواتٍ عديدةٍ، ووردت في ذلك عدّة أحاديث، ومن ذلك حديثٌ رواه الإمام مُسلم بن الحجّاج في صحيحه عن جابر بن سمُرة عن نافع بن عُتبة عن الرسول أنّهُ قال:«تَغْزُونَ جَزِيرَةَ الْعَرَبِ فَيَفْتَحُهَا اللهُ، ثُمَّ فَارِسَ فَيَفْتَحُهَا اللهُ، ثُمَّ تَغْزُونَ الرُّومَ فَيَفْتَحُهَا اللهُ، ثُمَّ تَغْزُونَ الدَّجَّالَ فَيَفْتَحُهُ اللهُ»، ومن المعروف أنّ مصر كانت جُزءًا من بلاد الروم وكذلك فقد أخبر الرسول بفتح مصر تحديدًا،ودعا إلى الإحسان إلى أهلها إكراماً لهاجر أُم النبي إسماعيل وزوجة النبيّ إبراهيم،فقد كانت من أرض مصر، كما أخبر بدخول أهلها في الإسلام واشتراكهم مع إخوانهم في التمكين له فقد ورد عن عن أبي ذرّ الغفّاريّ أنّهُ قال:«قَالَ رَسُولُ اللهِ : إِنَّكُم سَتَفْتَحُونَ مِصْرَ، وَهِيَ أَرْضٌ يَسمَّى فِيْهَا القِيْرَاط، فَإِذَا فَتَحْتُمُوهَا، فَأَحْسِنُوا إِلَى أَهْلِهَا؛ فَإِنَّ لَهُم ذِمَّةً

وَرَحِمًا، فَإِذَا رَأَيْتَ رَجُلَيْنِ يَخْتَصِمَانِ فِيْهَا فِي مَوْضِعَ لَبْنَة، فاخرُج مِنْهَا» قال: «فَرَأَيْتُ عَبْدُ الرَّحمٰنِ بنُ شُرحبيل بنُ حَسَنَة وَأَخَاهُ رَبِيْعَة، يَخْتَصِمَانِ فِي مَوضِعَ لَبَنَة، فَخَرَجْتُ مِنْهَا»وفي روايةِ لابن حبّان أنّ الرسول قال عن أهل مصر :«فَاستَوْصُوا بِهِم خَيْرًا، فَإنّهُم قُوَّةٌ لَكُم، وَبَلَاغٌ إِلَى عَدُوّكُم بِإِذْنِ الله» وفي روايةٍ أُخرى عن عبد الملك بن مسلمة عن الليث وابن لهيعة بأنّ الرسول مُحمّد قال عندما حضرته الوفاة: «الله الله فِي قِبْطِ مِصْرَ فَإِنّكُمُ سَتَظْهَرُوْنَ عَلَيْهِم وَيَكُونُونَ لَكُمُ عِدَّة وَأَعْوَانًا فِي سَبِيْلِ اللهِ».

العلاقات العربيَّة المصريَّة قبل الفُتح

عرف العرب مصر مُنذُ حقبٍ بعيدة، وذلك بِفضل ما كان بينها وبين شبه الجزيرة العربيَّة من صَلاتٍ أبرزُها الصلة التجاريَّة ذلك أنَّ مصر كانت مُنذ العصر الفرعوني دولةً بحريَّة تجوبُ سُفُنها التجاريَّة البحرين المُتوسِّط والأحمر، وهيمنت على التجارة الشرقيَّة، والمعروف أنَّ الفراعنة شقّوا طُرُقًا ملاحيَّةً تصلُ البحر الأحمر بِفُروع النيل لِتسهيل الحركة التجاريَّة،ومنها تاجروا مع الحجاز واليمن ولم تكن الطُرق البحريَّة الأداة الوحيدة التي تصل مصر بشبه الجزيرة العربيَّة، بل كان مضيق السُويس أداة اتصالٍ بينهُما فقد كان في شبه جزيرة سيناء طريقٌ عبَّدهُ المصريّون القُدماء، يُؤدّي إلى مناجم النُحاس فيها،وكان هذا الطريق يتّصل بِشمال الحجاز ويتقاطع عند تيماء مع الطريق الذاهب إلى العراق، ويتّصل بِطريق القوافل المُنحدر إلى مكّة واليمن، إنّهُ طريق تُهامة المُوازي تقريبًا لِساحل البحر الأحمر من عدن إلى أيلة – العقبة – ومنها إلى مصر.

كان المصريّون يحملون البضائع إلى بلاد العرب ويُقيمون فيها ريثما يعودون بِتجارة الشرق، وكذلك فعل العرب، فكانوا يحملون تجارة الشرق إلى مصر ويُقيمون فيها ريثما يعودون إلى بلادهم ومن أبرز القصص والأدلّة على ذلك ما ورد في سفر التكوين عن قصّة النبيّ يُوسُف وقافلة الإسماعيليين (العرب) التي كانت جمالُهم تحملُ

كثيراء وبلساناً ولاذناً، فقد جاء في الإصحاح السابع والثلاثين: ثُمَّ جَلَسُوا لِيَأْكُلُوا طَعَاماً فَرَفَعُوا عُيُونَهُمْ وَنَظَرُوا وَإِذَا قَافِلَةُ إِسْمَاعِيلِيِّينَ مُقْبِلَةٌ مِنْ جِلْعَادَ، وَجِمَالُهُمْ حَامِلَةٌ كَثِيرَاءَ وَبَلَسَاناً وَلاَذَناً، ذَاهِبِينَ لِيَنْزِلُوا بِهَا إِلَى مِصْرَ ولقد أدّت هذه الحركة التجاريّة إلى استقرار جالية مصريّة في بلاد العرب، وإقامة جالية عربيّة في مصر ويُشير بعض الباحثين والمُؤرخين إلى هذه العلاقة التاريخيّة الوثيقة بين مصر والعرب، وعلى رأسهم المؤرخ الإغريقي الشهير هيرودوت الذي أكد لدى رحلته لمصر قبل الميلاد تواجد العرب من أبناء شبه الجزيرة العربيّة في مصر سواء من جهة الشمال في سيناء والمناطق المُجاورة أو من جهة الجنوب في ولايات الصعيد والبحر الأحمر وبحسب الجُغرافي جمال حمدان فإنّهُ وقبل ظُهور الإسلام كانت حركة التاريخ الإقليمي والتجارة والعلاقات والهجرات بلا انقطاع بين غرب شبه الجزيرة العربيّة ووادي النيل خاصة بين مصر والجزيرة في الشمال وعلى نطاق محليٍ أصغر انتقلت جالية من صعيد مصر إلى مدينة في الحجاز قبل الإسلام حتى استقرّت وتوطّنت، ويُقال أنّ أصل أبنائها هم الذين استقبلوا النبي بالترحيب عندما هاجر من مكّة إلى يثرب.

استمرّت الصلة التجاريّة بين مصر وشبه الجزيرة العربيّة قائمة بعد قضاء الرومان على حُكم البطالمة في مصر، تقوى حيناً وتضعف أحياناً ثُمَّ حدث أن ورثت بيزنطة المناطق الشرقيّة

للإمبراطوريّة الرومانيّة في القرن الخامس الميلاديّ إثر انقسام هذه الأخيرة إلى قسمين شرقي وغربي، في الوقت الذي استأنف فيه العرب رحلاتهم التجاريّة، وبخاصّة رحلة الصيف إلى الشّام حيثُ كانت بعض القوافل تنحدر عند أيلة إلى مصر ويدلُّ ذلك على أنَّ جُزءًا مُهمًّا من البضائع الشرقيّة كان مُعدًّا للتصدير بحرًا إلى موانئ البحر المُتوسّط عبر ميناء الإسكندريّة كوّن العرب، بحُكم هذا الواقع التجاري، صورةً عن أوضاع مصر، زادها القُرآن وُضوحًا حين تحدّث عن غنى هذا البلد الزراعي فقد ورد في القُرآن تعقيبٌ على ما حدث من غرق فرعون وقومه: كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ وجاء أيضًا: ﴿وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلا تُبْصِرُونَ﴾، وورد على لسان بني إسرائيل بعد أن أخرجهم النبيّ موسى من مصر: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَن نَّصْبِرَ عَلَىَ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنبِتُ الأَرْضُ مِن بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُواْ مِصْراً فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ...﴾.

الباب السابع

مصر تحت الحكم الاسلامى

مصر تحت الحكم الإسلامى

بعد تمام فتح مصر، كتب عُمر بن الخطّاب إلى واليه عمرو بن العاص يسألهُ عن أوضاع البلاد طالباً منه أن يصفها إليه وكأنّهُ حاضرها ويراها بنفسه فكتب عمرو بن العاص إليه يشرح أحوال مصر، فوصف له تباين بيئاتها ما بين الصحاري والأراضي الزراعيّة، مُبينًا إليه حُسن الأراضي المعطاء وحُسن النيل وخيراته الكثيرة، مُقترحاً عليه ثلاث أشياء لِإصلاح أحوالها بعد أن أنهكها الروم واستنفذوا مواردها طيلة سنواتٍ وسنوات، وهي: أن لا يُقبلُ قول خسيسُها في رئيسها، وأن يؤخذ ثُلث ارتفاعها ويُصرف في عمارة ترعها وجُسورها، وأن لا يُستأدى خراج ثمرها إلّا في أوانها وفي الحقيقة فإنّ الفتح الإسلاميّ لِمصر كان لهُ عدّة آثار على جانبٍ كبيرٍ من الأهميّة.

الأثر الديني

تعرّض المصريّون قبل الفتح الإسلامي لاضطهادٍ قاسٍ على أيدي البيزنطيين، ومن ثُمّ رأوا في القُوّة الإسلاميّة الداخلة، أمل فى الخلاص ممّا هُم فيه، فساندوها، ورحّبوا بِدُخول المُسلمين أرض مصر، لكنّ هذه المُساندة كانت صامتة في بادئ الأمر، أي محايدة وشكّلت انتصاراتُ المُسلمين وإخضاعهم البلاد نصرًا دينيًّا للمصريين

المسيحيين حيثُ غادر البلاد عددٌ كبيرٌ من البيزنطيين ولمّا استقرّت الأوضاع، وكانت أخبار العهدة العُمريّة الخاصّة ببيت المقدس ونصارى الشّام قد تسرّبت إلى مصر، لقي المصريّون من الحُكم الجديد ما شعروا معهُ بكثيرٍ من الحُريّة ولعلّ أوّل عملٍ قام به عمرو بن العاص بعد استقرار الأوضاع الداخليّة؛ الإعلان بين الناس جميعًا أنّ لا إكراه في الدين، وأنّ حُريّة العقيدة أمرٌ مُقدّس، فلن يُتعرّض لِأحدٍ في حُريّته أو في ماله بسبب دينه أو مذهبه، وخيّرهم بين الدُخول في الإسلام والبقاء على دينهم، فمن يدخل في الإسلام يكون لهُ ما للمُسلمين وعليه ما عليهم، ومن يبقى على المسيحيّة أو اليهوديّة فعليه الجزية، ولا يُفرض عليه الإسلام بالقُوّة والواقع أنّ عُمرًا انتهج سياسة المُساواة الدينيّة بين المذهبين النصرانيين اللذين استمرّا في مصر وتذكر روايات المصادر أنّ كثيرًا من كنائس الملكانيين بقيت موجودة واستمرّت في إقامة الشعائر الدينيّة وأنّ عددًا كبيرًا من الملكانيين فضّلوا البقاء في مصر؛ وأنّ أُسقفًا ملكانيًا بقي على مذهبه حتّى مات لم يمسّهُ أحدٌ بأذى، وأنّ البطريرك القبطي بنيامين الذي عاد إلى الإسكندريّة بعد أن قضى ثلاثة عشر سنة لاجئًا مُتخفيًا خشية أن يُقبض عليه، أُعيد إلى مركزه وأضحى بإمكانه أن يقوم بواجباته الدينيّة وهو مُطمئن، وكان يستقطب الناس إلى مذهبه بالحُجّة والإقناع، واستطاع أن يحصل على بعض الكنائس التي تركها الملكانيّون بعد خُروجهم وضمّها إلى كنائس البطريركيّة، ولمّا عاد إلى

الإسكندريّة قال لأتباعه:عُدتُ إلَى بَلَدِيَ الإسْكَندرِيَّة، فَوَجَدْتُ بِهَا أمْنًا مِنَ الخَوْف، وَاطمِئْنَانًا بَعْدَ البِلَاء، وَقَد صَرَفَ اللهُ عَنّا اضطِهَادَ الكَفَرَةِ وَبَأسِهِم ويذهب المُفكّر والباحث اللُبناني إدمون ربّاط إلى القول بأنّ السياسة القائمة على عدم الإكراه في الدين إنما هي سياسة إنسانيّة ليبراليّة استمالت قُلوب المسيحيين إلى الإسلام وجعلت النصارى يُفضلون العيش في ظلّه، فلأوّل مرّة في تاريخ الشوام والمصريين عُموماً والمسيحيين خُصوصاً، خرجت دولة لِفتح بِلادهم دون أن تفرض عليهم اعتناق دينها بالقُوّة، وذلك في زمنٍ كان يقضي المبدأ السائد إكراه الرعايا على اعتناق دين مُلوكهم، بل وحتّى على الانتماء إلى الشكل الخاص الذي يرتديه هذا الدين.

كان من ضمن بُنود الصُلح الذي أُبرم بين المُسلمين والروم السّماح لليهود بالإقامة في الإسكندريّة، ويذهب البعض إلى القول بأنّ سماح عمرو بن العاص لليهود بالإقامة في الإسكندريّة أهم مراكز نشاطهم كان مُكافأةً لهم، لِعدم تدخُلهم في قتال المُسلمين، والتزامهم الحياد طوال أحداث الفتح وقد ذكر عمرو في كتابه للخليفة عُمر بن الخطّاب أنّ عدد اليهود بالإسكندريّة حوالي أربعين ألفًا، وهُم يُؤدون الجزية على حين تُشيرُ روايةٌ أُخرى إلى أنّهُ كان يوجد بالإسكندريّة نحو سُتمائة ألف يهودي وأنّ كثيرًا منهم هرب إلى بلاد الروم فبلغ عدد من بقي منهم ويُؤدون الجزية نحو خمسين ألف يهودي ويذكر أحد المصادر أنّهُ قد رحل حوالي سبعين ألف يهودي من الإسكندريّة

عند دُخول عمرو بن العاص فيها، ولم يُشر هذا المصدر إلى سبب رحيلهم ولا إلى أيِّ جهةٍ ذهبوا، وقد يكونُ بعضهم قد ترك الإسكندريَّة إلى غيرها من المُدن المصريَّة، وقد يكونون قد غادروا الأراضي المصريَّة ويُرجِّح بعض المُؤرخين الاحتمال الأوَّل لأنَّ موقف اليهود من الفتح الإسلامي كان موقف محايد، ولم يقوموا بأيَّة مُقاومة أو عملٍ عدائيّ ضدَّ المُسلمين حتَّى يخشوا بطشهم، بل على العكس من ذلك كانوا يكرهون الحُكم البيزنطي، وعليه يرى أصحاب هذا الرأي أنَّ هؤلاء اليهود فضَّلوا الإقامة في غير الإسكندريَّة من المُدن المصريَّة حتَّى تتسع دائرة نشاطهم في ظل الحُكم الإسلامي الجديد وكان من أثر الحُريَّة الدينيَّة والمُعاملة السمحة أن أقبل كثيرٌ من المصريين على النظر في المذاهب المُختلفة، ثُمَّ انتهى أكثر هؤلاء إلى قُبول الإسلام والدُخول فيه، ومع مُرور الزمن اعتنقت الغالبيَّة العُظمى من المصريين الإسلام، وبقيت فئة على المسيحيَّة، وفئةٌ أصغر على اليهوديَّة، وقد تحوَّلت مصر مع تعاقب القُرون إلى أحد أهم وأبرز البُلدان الإسلاميَّة في العالم، وأحد أبرز معاقل الإسلام من الناحيتين البشريَّة والدينيَّة، نظراً لِحجم سُكَّانها الكبير ولِاحتضانها بعض أهم المراكز الدينيَّة الإسلاميَّة، كما استمرَّت في ظل العُهود الإسلاميَّة المُتتالية أحد أبرز وأهم معاقل المسيحيَّة الأرثوذكسيَّة في العالم لِاحتضانها الكُرسي البابوي القبطي الأرثوذكسي.

الأثر الإداري

خلت بِخُروج البيزنطيين بعض الوظائف الحُكوميَّة التي كان يشغلها هؤلاء ولِأنَّ المُسلمين لم يكن لهم عهد بعد بالشئون الإداريَّة، وكان يهُمهم أن تستمر الإدارة في العمل، وأن تُجمَّع الضرائب، بِغض النظر عمَّا يختص بالعاملين في الحقل الوظيفي؛ فقد فتحوا أبواب العمل أمام القادرين والراغبين من المصريين والمعروف أنَّ الإدارة الإسلاميَّة الجديدة احتفظت بِثلاثة موظفين بيزنطيين في مراكز إداريَّة كبيرة هي: حاكميَّة مصر السُفلى وتولّاها مينا (ميناس)، وحاكميَّة منطقة الفيُّوم وتولّاها فيلوخينوس، وحاكميَّة الريف الغربي وتولّاها سنيوتوس وبِفعل هيمنة المُوظفين المصريين على العمل الإداري، أضحت اللُغة القبطيَّة اللُغة الرئيسيَّة في الإدارة، ولُغة الدواوين، فحلّت بذلك محل اللُغة اليونانيَّة وحافظ المُسلمون على الأساليب البيزنطيَّة في تدوين الدواوين وجمع الضرائب، فانتعشت الثقافة القبطيَّة مُجددًا وأخذت تملأ الفراغ الذي نتج عن الخُروج البيزنطي واعتنى المصريّون بِتعلُم اللُغة العربيَّة لِأنّها كانت لُغة الفاتحين، واحتفظ المُسلمون بِقيادة الجُند والقضاء وقد جُعلت مصر ولايةً من ولايات دولة الخِلافة الراشدة، وولّى عُمر بن الخطّاب عمرو بن العاص عليها ومع مُرور السنين ونتيجةً للتثاقف طويل الأمد، استعرب المصريّون وأصبحت اللُغة العربيَّة لُغتهم الأُم، واقتصر استعمال اللُغة القبطيَّة على

التراتيل والترانيم الدينيّة المسيحيّة، وفي كتابة بعض النُصوص المُقدّسة.

الأثر الاقتصادي

كانت مصر تتعرّض بين سنةٍ وأُخرى لِضائقةٍ اقتصاديّة ناتجة عن انخفاض ماء النيل ممّا يُسببُ خللًا في المُعادلة الاقتصاديّة، وقد عانى المصريّون كثيرًا من هذه الظاهرة، وأدرك عمرو بن العاص ذلك، فخفّف عن المصريين كثيراً من الضرائب التي فرضها البيزنطيّون والمعروف أنّ الضرائب البيزنطيّة، كانت كثيرة ومُتنوعة، وتناولت مُعظم النشاط الاقتصادي والاجتماعي، وسوّى بينهم في أدائها، كما أعفى بعضهم منها ويُذكر في هذا المقام أنّ الخليفة كتب إلى عمرو أن يسأل المُقوقس في خير وسيلةٍ لِحُكم البلاد وجباية أموالها، فأشار عليه المُقوقس بالشُروط التالية: أن يُستخرج خراج مصر في وقتٍ واحدٍ عند فراغ الناس من زُروعهم، وأن يُرفع خراجُها في وقتٍ واحد عند فراغ أهلها من عصر كُرومهم، وأن تُحفر خُلجانها كُلّ سنة، وأن تُصلح جُسورها وتُسدّ ترعها، وألّا يُختار عاملٌ ظالمٌ لِيلي أُمورها ونتيجة لِهذه التوصيات رسم المُسلمون خطّة جباية الخِراج، واعتنوا بِهندسة الرّي، من حفر الخلجان وإصلاح الجُسور، وسد الترع، وبناء مقاييس للنيل، وإنشاء الأحواض والقناطر ومن أشهر ما قام به عمرو، هو حفر قناة سيزوستريس التي تصلُ النيل

بالبحر الأحمر،وتُسهِّلُ الاتصال بشبه الجزيرة العربيّة، وتُؤمِّنُ طريقاً أفضل للتجارة الشرقيّة، وعُرفت بخليج أمير المؤمنين ولم يُقسم المُسلمون أرض مصر بين الفاتحين ولكن اكتفوا بفرض الضرائب على المصريين، وتركوها في أيدي الشعب يتعهدها فتُثمر وبعد حين مُسحت الأراضي، واحتفظت الحُكومة بِسجلّاتها، وأنشأت عدداً كبيراً من الطُرق وعنوا بصيانتها، وأُقيمت الجُسور حول الأنهار لمنع فيضانها كما أبطل المُسلمون عادة بِعروس النيل وهي إلقاء فتاة بكر في النيل في شهر بؤونة حتى يجري ويفيض .

وكان من أثر هذه الإصلاحات أن تحسّنت حالة المصريين وزادت ثرواتهم، واطمأنّوا على أرواحهم ومُمتلكاتهم ومُستقبلهم، ونعموا بالهُدوء والاستقرار، وازدادت إلفتهم بالمُسلمين مع مُرور الوقت، ودخل كثيرٌ منهم في الإسلام وكان الرأي السّائد آنذاك أن يبقى المُسلمون على رباطهم لا يشتغلون بالزراعة ولا يحلُون بالبلاد كأهلها، فلمّا اطمأنوا في البلاد أخذ ذلك الحظر يُرفعُ عنهم، وأُبيح لهم أن يمتلكوا الأراضي.

تخطيط الفسطاط

بعد أن فرغ عمرو بن العاص من فتح الإسكندريّة وأجلى البيزنطيين عنها وطردهم من مصر، همَّ أن يستقرَّ بها لِما فيها من عُمران، فيجعلُها عاصمةً للولاية التليدة كما كانت زمن الروم، وكتب

بذلك إلى عُمر في المدينة المُنوّرة، لكنّ عُمرًا أمره أن ينزل بالمُسلمين منزلًا لا يحول بينه وبينهم نهرٌ ولا بحر سواء في الشتاء أو الصيف والواقع أنّ الإسكندريّة لم تكن صالحة لِأن تكون حاضرة مصر الإسلاميّة، إذ أنّ انتقال السيادة عليها من البيزنطيين إلى المُسلمين المُنطلقين من شبه الجزيرة العربيّة، يُحتِّم على هؤلاء أن يختاروا مكانًا لِإقامتهم يقع إمّا على ساحل البحر الأحمر، وإمّا في مكانٍ يسهلُ معهُ الاتصال ببلاد العرب، ولمّا لم يكن للمُسلمين عهدٌ بالبحر بعد، لذلك كان الاختيار الثاني هو الحل المُناسب كان عمرو قد أقام فسطاطهُ في أرضٍ فضاء ومزارع بين حصن بابليون وجبل المُقطّم أثناء حِصار الحصن المذكور فلمّا فتح الحصن وقرّر الزحف نحو الإسكندريّة أمر بِنزع هذا الفسطاط، فإذا بِيمامةٌ قد باضت في أعلاه، فتركها حتّى تكبُر فراخها وتطير فلمّا عاد من الإسكندريّة بعد فتحها أمر جُنوده أن ينزلوا عند الفسطاط وأن يختطّوا دورهم فيها، فسُمِّيت تلك البُقعة بالفسطاط وهكذا أسّس عمرو بن العاص مدينةً جديدةً للمُسلمين سنة ٢١هـ - ٦٤٢م، وبنى فيها أوّل جامعٍ في مصر عُرف باسمه لاحقًا، وسُمي أيضاً جامعُ الفتح أو الجامع العتيق ويُستبعد أن تكون مدينة الفسطاط قد جُعلت عند اختطاطها مدينةٌ كبيرة أو أنّهُ كان يُقصدُ منها أن تكون عاصمةً للمُسلمين، لكنّها وإن ابتدأت صغيرة، فقد نمت نُموًّا سريعًا بعد سنةٍ من تأسيسها، فقد رأى المُسلمون أنّهم يستطعون البناء خارج أسوار الحصن ويتوسّعون لا يخافون شيئًا بعد أن وضعت الحرب

أوزارها، وأمنوا الغدر من أن يأتيهم من جانب المصريين وسُرعان ما نزلت في الفسطاط عدّة قبائل عربيّة مثل: أسلم، وبلي، ومعاذ، وليث، وعنزة، وهذيل، وعدوان، وغيرهم، وقد نزل فيها المصريّون أيضاً واختلطوا مع العرب المُسلمين وامتزجوا تدريجيًّا، حتّى أصبحت المدينةُ الجديدة حاضرةُ مصر.

أهم المصادر والمراجع

- كتب السنن وشروحها.
- تاريخ الطبري – أبوجعفر ابن جرير الطبرى.
- السيرة النبوية – أبي شهبة.
- تاريخ الجزيرة العربية قبل الإسلام– د.عبد العزيز سالم.
- شرح المعلقات السبع –الحسين بن احمد بن الحسين الزوزني.
- المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام– د. جواد علي.
- بحوث في تاريخ العرب قبل الإسلام– أ. حسين البناي.
- – عدد من الصحف والمجلات العربية والأجنبية منها: مجلة العلوم الاجتماعية

– مجلة اتحاد الجامعات العربية

– مجلة البحث في التربية وعلم النفس

– مجلة مؤتة للبحوث والدراسات

– مجلة رسالة الخليج العربي

– مجلة تكنولوجيا التعليم مجلة تكنولوجيا التعليم

- مجلة العلوم التربوية والنفسية
- مجلة التضامن الإسلامي
- مجلة بحوث ودراسات في العلوم الاجتماعية
- مجلة عالم الفكر- مجلة البصائر
- مجلة التربية العلمية
- مجلة القراءة والمعرفة
- مجلة التعاون، مجلس التعاون لدول الخليج العربي
- مجلة مستقبل التربية العربية.

- تاريخ التمدن الإسلامي- جرجي زيدان.
- المرأة في الجزيرة العربية قبل الإسلام - أجواد الفاسي.
- نظرات في السيرة - الإمام حسن البنا.
- فُتُوح مصر وأخبارها - أبو القاسم عبدُ الرحمٰن ابن عبد الحكم.
- المسيحيّة في العُقود الإسلاميّة الأولى- جيرار تروبّو.
- الحياة الاقتصاديّة في مصر البيزنطيّة - زبيدة محمد عطا.
- تاريخ أهل الذمّة في مصر الإسلاميّة - فاطمة مُصطفى عامر.

- الدولة العربيّة الإسلاميّة الأولى- عصام مُحمّد شبارو .
- فُتوح البُلدان - البلاذريّ.
- مُعجم البُلدان - ياقوت الحمويّ.
- أقباط ومُسلمون مُنذُ الفتح العربي - جاك تاجر .
- الوُلاة والقُضاة -أبو عُمر مُحمّد بن يُوسُف.
- الفاروق عُمر - مُحمّد حسنين هيكل .
- مُروجُ الذهب ومعادن الجوهر- أبو الحسن عليّ بن الحُسين المسعودي.
- مصر في عهد عمرو بن العاص - موقع قصة الإسلام، د. راغب السرجاني.
- قصة الحضارة، ول ديورانت، الموسوعة الشاملة.
- قصة نيل مصر، الجزء السابع، البداية والنهاية، ابن كثير.
- الأوضاع الإدارية والاقتصادية والثقافية، موقع قصة الإسلام، د.راغب السرجانى.
- كتاب الإنتصار لِواسطة عقد الأبصار - صارمُ الدين إبراهيم بن مُحمّد بن أيدمر بن دُقْماق القاهريّ .

- تاريخ مُختصر الدُول – ابن العبري.
- مصر في فجر الإسلام – سيّدة إسماعيل كاشف.
- مصر في العُصور الوُسطى – علي إبراهيم حسن.
- الرُّوم في سياستهم وحضارتهم ودينهم وثقافتهم وصلاتهم بالعرب – أسد رُستم .
- سيرة ابن هشام– أبو مُحمَّد جمالُ الدين عبدُ الملك بن هشام .
- كتابُ الطبقات الكبير – ابن سعد، أبو عبدُ الله مُحمَّد بن سعد بن منيع البصري الزهراويّ.
- الطريق إلى المدائن–أحمد عادل كمال.
- معارك خالد بن الوليد– ياسين سُويد .
- فُتوح الشّام – أبو مُخنّف لوط بن يحيى الأزدي .
- تاريخ مدينة دمشق ابن عساكر.
- أسد الغابة في معرفة الصحابة – عبد الكريم الشيباني الجزري.
- لُبنان من الفتح الإسلامي حتي سُقوط الدولة الأُمويّة –عُمر عبدُ السلام .

الفهرس

المقدمة ٥

الباب الأول

وضع بلاد العرب قبل الإسلام ٧

الباب الثانى

الوضع فى مصر قبل الفتح ٢٩

الباب الثالث

الفتح الإسلامى للشام ٤٩

الباب الرابع

الفتح الإسلامى لمصر ٧٥

الباب الخامس

أثر الفتح الإسلامى على العرب ١٠٥

الباب السادس

أثر الفتح الإسلامى على مصر ١٣٥

الباب السابع

مصر تحت الحكم الإسلامى ١٤٥

المصادر والمراجع ١٥٦

الفهرس ١٦٠